
ثمرات القلم
في الأدب والاجتماع

المطبعة المتوسطة بالبشماوى بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله والصلاة والسلام على أنبيائه (وبعد) فقد يعز على الأديب أن تذهب بحوثه أدراج الرياح أو تطوى صفحة حياته دون أن يترك لقومه سفرا يتضمن آراءه وما أنتجته قريحته بعد خبرة وتجارب فى شئون الأدب والاجتماع

ولكننا فى عصر يتجه إلى المسائل المادية بحالة تربو على اتجاهه إلى تقدير الطرف الأدبية أو الغرر الاجتماعية أو النظريات الخلقية فأن كاشفت بعض إخوانك ممن لهم باع طويل فى إنشاء الرسائل وشهرة فائقة فى إبداع المقالات الشيقة فى أنك مقدم على إخراج مؤلف أدبى فأنهم ينصحون لك بالأقلاع عن ذلك لانهم جربوا من قبل كساد هذه البضاعة وانصراف الناس عن هذه السوق إلى أخرى نفقت فيها نـكات مبتذلة وأقاصيص لا وزن لها وأنهر اشتملت على بعض زلات الأنام وما إلى ذلك من هجر القول وبذىء اللفظ

ولعل من الأسباب المؤيدة لهم فى إبداء نصحهم أننا بلينا ببعض الناشرين الذين يريدون أن ينالوا وحدهم أكبر قسط فى الربح أو إن شئت فقل إنهم يريدون أن يكون لهم الغنم وعلى غيرهم الغرم فهم لا يالون جهدا فى محاربة الكتاب إذا ظهر عن غير طريقهم حتى إذا ضاق

صاحبه به ذرعا يلجأ إليهم وعندئذ يفاوضونه بأبخس الأثمان ويخرج فى النهاية بصفقة المغبون

وفوق ذلك فقد يعنى القراء بشهرة الكاتب أكثر من عنايتهم بما سطر فى الكتب ذاتها وكثير ممن اشتهروا قد وصلوا إلى هذه الدرجة عن غير جدارة واستحقاق اللهم إلا نفر قليل امتازوا بانسجام العبارة ورصانة اللفظ وجودة المعنى وسمو النفس والاطلاع الغزير والعلم الوفير والقدرة الكاملة فى اللغة والبيان

ولا أحسبنى مبالغا إذا قلت إن الانكباب على وضع رسالة علمية منطبقة على منهاج من مناهج التعليم التى أقرتها وزارة المعارف لتلاميذ المدارس الابتدائية أو الثانوية مثلا أجدى على المؤلف من معالجته فنا من فنون الأدب مع أن الطريقة الأولى لا وعورة فيها ولا مشقة ولا تتطلب مجهودا عقليا جبارا كما تتطلبه الثانية إذ تعتمد على الابتكار والتفكير الخاص ولا يعاونها مرجع يعتد به وإلا عد العمل الجديد تطفلا على ما دبجه يراع الغير ونال صاحبه من الازدراء والتحقير ما لا يدخل تحت حصر

والتشجيع من مستلزمات النبوغ والاتقان فان انخذل الأدباء واحدا تلو الآخر نضب معين الأدب ولم يبق لنا إلا قديمه وقل من يفقهه أو يستطيع استساغته . على أن لنا فى ظروف الحياة فى أيامنا هذه وفى التطور الجديد السريع فى الأخلاق بسبب الاتصال المتين بالنظم الغربية من هذه الناحية ما يحملنى على الاعتقاد بأننا فى حاجة إلى كد الأفهام للوصول إلى أسمى غاية ولوضع مثل أعلى يصلح لبيئتنا وقوميتنا وماضى أمتنا المجيد

ولا أقصد بما قدمته إثبات ما لكتبى من قيمة ولا أدعى حججا قاطعة

يجب السير على مقتضاها والعمل على حسب البنود والفقرات التى أوردتها عند سرد الحديث وشرح القول وإنما هى ثمرات القلم فى بعض سويعات اختلستها من وقت يحمانى ما لا أطيق من جهد فى التحضير والتعليم والتصحيح أى أننى ملزم بحكم مهنتى أن أنفق كل وقتى فيما يعود على أبنائى الطلبة بالنفع والنجاح إن استطعت إليهما سبيلا ولذلك لا يمكننى الجزم بأنها أتت كاملة بعيدة عن كل نقص والأمر موكول إلى القراء ولا بغية لى إلا إرشاد الشبان إلى أقوم الطرق ونصح ربات الحجال إلى اتباع الهدى والتمسك بالعفاف بكل ما أوتين من قوة

ولقد عنيت فى بدء الشباب بنشر الطبعة الأولى من كتيبى ثمرات الوجدان وعلى توالى الأيام أخرجته فى ثوب قشيب كبير الحجم نسبيا أى نحو ضعف ما كان عليه أول مرة ولا أنكر أنه كان يتمشى مع العاطفة فى كثير من المواقف وإن لم أخرج فيه عن حد الفضيلة بل كان الغرض منه نصرتها والأخذ بيدها

ولهذا فأنى أعتبر الكتاب الذى بيد القارىء متمما لما سبقت الأشارة إليه وغاية الأمر أنه يتمشى مع العقل أكثر من سابقه فللسن حكمه فى تكييف الآراء وللحوادث أكبر أثر فى إمداد الكاتب بالبراهين وللتجارب مزايا لا يستهان بها فى توجيه البحث إلى الإقناع والتدليل

ولقد مهدت للكتاب الأول بذكر شىء عن الشباب وأهميته وإنى هنا أقرر أن أكثر ما أنشأت فى الكتاب الثانى لمصلحة من هم فى شرخ الصبا وريعان العمر أيضا

ولا أكتب عن حوادث وردت فى بطون الصحف السيارة فالقراء

يصبحون وقد اطلعوا عليها ويمسون وقد واجهوها فهم إذن فى غنى عن تكرارها لهم ولا أسعى إلى تشويه سمعة ذات معينة ولا أنتقد زيدا من الناس فأنى أمقت هذا النوع من الكتابة ولكنى إذا ما آلمتنى حالة خلقية مشينة مثلا تخيلت لها أشخاصا لا وجود لهم فى عالم الحقيقة ولكنهم يعبرون عن أمور وقع فيها الكثيرون وغرضى البرهنة على نظر ياتى بأشياء محسة يدركها كل فرد

ولا يعيبن على أحد إهمالى للسياسة فلا أميل إليها ولست من أساطينها وقد أبديت فيها رأيي صراحة فى مقال عنوانه قاموس السياسة دونته بين هذه الثمرات فليراجعه من يشاء وليست على كل حال غرضا أساسيا عند ما صغت وشى هذه الفصول

والكتاب برمته مبتكر لا مراجع له إذ المقصد منه تصور ما عن لى من بعض عيوبنا الاجتماعية وطرق علاجها والوقاية منها و إذا كان فى العمر فرجة وفى الأجل متسع عززناه بثالث يكون أغزر مادة وأوفى بحثا وأرقى أسلوبا

وقبل أن اختم هذه المقدمة أرحب بكل نقد مبعثه المصلحة العامة وأرجو أن أكون عند حسن ظن القارئ فالخير أردت وأسأل الله أن ينفع به نابتة هذه الأمة الكريمة وأن يوفقنا إلى سداد الرأى وأن يرعى كل مخلص بعنايته إنه سميع مجيب .

محمد طه محمود

الاسلوب الحديث

بين الكتاب الحديثين نزعة الى نقد الاسلوب البليغ ، أو على حد رأى بعضهم الكتابة التى لمنشئها ولع بالاستعارات ، والكنايات والمحسنات اللفظية ، والتعمق فى المعانى . و يرون أن أحسن ما ينبغى أن يتخذ أداة للتحرير عبارة سهلة يدركها الخاصة والعامة ، فلا يجد فيها من تعلم تعليما وسطاً أو دون الوسط مشقة أو جهداً

وهم فى نقدهم يعيبون على كتاب المدرسة القديمة — كما يسمونها بذلك — نبوغهم فى ابتكار الاساليب الرائعة، و تصوير الأخيلة بتلك الروح العالية التى لا يسمو اليها إلا من ضرب بسهم وافر فى اللغة والبيان والبديع . وما الى ذلك مما لا يصل الى استساغته وهضمه الا نفر قليل

وبلغوا فى إغراقهم وتهويلهم درجة مدهشة . إذ أنكروا ما لهؤلاء الأدباء من فضل ، وما لعملهم من قيمة وان ذكرت لهم علماً من أعلام الأدب المبرزين حملوا عليه حملة شعواء ، وطعنوه الطعنة بعد الطعنة وانهالوا عليه يقبحون آثاره . بل يزعمون أن أعماله لا تزيد كثيراً ولا قليلا عما يكتبه صبية المدارس من المواضيع التى تطرق كل ذهن ولا تصعب على أحد

وشادوا بذكر أنفسهم ووحى وجدانهم ، وعظمة أقلامهم ، ونعتهم المماثلون لهم والمعجبون بهم بالمجددين وقادة الفكر فى هذا العصر ، ونسبوا الى غيرهم كل تقصير ، والى هؤلاء وحدهم كل تقدير ومقام لايدانى ولا يسبر غوره . وأنى لسواهم اللحاق بهم وهم المبدعون المبتكرون .

وإذا ظهروا فى الميدان اختفت أمامهم كل صحائف الماضى ولم تبق لها تلك المكانة العالية التى بلغتها من قبل

وتلك حالة يفاجئك بها الكاتب الناشىء ولما يكتمل عقله ، وتنظم أفكاره ، ويهذب قلمه ، ولا يتورع عنها الكاتب الضليع وقد طبقت شهرته الآفاق . فان صح ما تسمعه بين آن وآن مما يدعيه الخاملون فى الذكر وغير الخاملين ، كانت مجاراة أساطين البلغاء جريمة لا تغتفر ، ومحاولة الاتيان بلفظ جزل ومعنى جيد خطيئة لا تستباح فى أيامنا هذه بعد أن كانت الغاية التى ما بعدها غاية فى فجر القرن العشرين وفى عقدتيه الأولى والثانية

واذا كنا نرى رأى اخواننا المجددين فقد خلطنا بين الأدب الرخيص والأدب الثمين ، وأخفينا الأسلوب البديع وراء الأسلوب الحقير ، وسوينا بين الجهابذة الأعلام والسوقة الأغمار ، وطوينا صفحة مجيدة وأحللنا محلها صفحة لا تشرف صاحبها ولا المجتمع الذى تنتسب إليه

على أننا لا نرتضى المغالاة فى البحث وراء معنى خفى ، أو إجهاد القرائح للوصول الى كلمات غريبة ورصها رصاً فى سياق الحديث . فأن هذه الطريقة تضيع الثمرات المرجوة والفوائد المقصودة من نشر الآراء على الناس . ولا مراء فى أن صرف الوقت فى حل رموز ما تضمنته المقالات لا يوافق عليه من له مسكة من عقل

وإنا لنبرأ من التعقيد ولا نميل الى جعله أساساً للابانة عما تكنه ضمائرنا ، بل إن علماء البيان مجمعون على أن السهل الممتنع أرقى ما تصبو اليه نفس الأديب الراجح العقل . وقد عرفوه بأنه هو الذى اذا رآه الجاهل ظن أنه يستطيع أن يأتى بمثله

وعلى ذلك فالأسلوب القائم على سنن البلاغة وقواعدها لا تعسف فيه ولا التواء . ومهاجمة ذويه بغير حق نعده من قبيل الحسد أو العجز عن مماثلتهم ، أو الفواق عليهم عن جدارة واستحقاق . وإن رجال المدرسة القديمة لم يتعمدوا الجمود أو حشو فقراتهم بما صعب وعيه بل اذا أعوزتهم الرغبة فى إبراز جملة فيها لفظ تشتم منه الصعوبة على بعض القراء فسروه بمرادفه ، أو بما يجلو معناه ويوضحه .

إن فى جمال الأسلوب سرا يحمل القارىء على الاستفادة بما دبجه يراع ذوى الرأى السديد. وهو وسيلة لخلود ما يكتب فى تاريخ الأدب وسجله. ولقد رأينا القوم لا يعنون إلا بالشيق والجميل منه . وأن التبذل فى القول والانحطاط به الى مستوى لا يتناسب مع الثقافة والتعليم يضران ضررا بليغا ، فبدلا من تصفح الكتاب مثلا من مستهل ديباجته الى آخر حرف فيه، لا نرى مسوغا لتصديع الذهن فى الاطلاع على بنود لا تجتذبنا اليها ، ولا تؤثر على وجداننا .

وإنى لا أشك فى أن الذى يدفع البعض الى الحملة على الأساليب الراقية هو القصور عنها ، وعدم القدرة على المجىء بمثلها. فانه على الرغم من المطاعن المتتالية على هذا النوع نرى له الزعامة حتى هذه اللحظة ، ولا تزال لأربابه الصدارة فى عالم الأدب ، وقد ذهبت تلك الصيحات هباء لأنها دلت على حفيظة فى النفس، وغل فى الصدور، ووردت لا يؤيدها دليل، ولا ينصرها برهان

ومالنا ولهذا كله ، وقد قدم كثير من حضرات المجددين ومقلديهم على صفحات الجرائد والمجلات رسائل تكثر فيها الهنات والسقطات ، وجاءت أشبه شىء بالثوب المرقع ، فلا هى بذات روعة على النحو الذى ألفناه من قبل،

ولا هي بمنفصلة عنه ، بل تابعة له فى كثير من المواضع . ويتضح لك ذلك جلياً فى المساجلات العلمية ، والمناقشات الأدبية ، والخطب الحماسية ، والنثر الفنى الذى يعبر عن العواطف ، ويصف الداء الدفين ، والهوى العذرى وما شاكل ذلك .

وإذا كنا ننقد الماضى أو نسلم بعدم ملاءمته الآن ، فلا يجوز لنا أن نستعيض عنه بتلك الرطانة الجوفاء ، وذلك التكرار الممل ، وهذا الأسلوب الضعيف الملىء بالاضطراب اذ حرف الكلم عن مواضعه ، واستعملت المعانى فى غير ما توافق عليه أئمة اللغة وحاملو لواء البيان . بل إن شئت فقل إنه أشبه بالعامية منه بالعربية ، بل هو دون ذلك لكثرة ما تضمنه من الكلمات الأعجمية التى لا يبررها سوى الزهو والغرور ، والظهور بمظهر العارف بلغة أجنبية ، أو ببعض مفرداتها وتراكيبها .

ولعل الدافع الى الألفاظ الدخيلة ما تتطلبه المدنية الحديثة من التقليد الأعمى فقد أصبحنا نرى الكتاب حتى الذين لا يلمون بغير لغة البلاد يضمنون أبحاثهم عبارات قد لا يجيدون تهجيتها إذا عرضت عليهم فى ثوبها الأصلى ، ومبعثها فى عرف المتكلمين بها عن خؤولة وأعمام .

إن الانقطاع عن الماضى القريب ينسينا محاسن ما أنتجته عقول أدبائنا الذين ليس بيننا وبينهم بون شاسع . والانقطاع عن الماضى البعيد يفقدنا تراثا تكاتف أمراء النثر والشعر من الناطقين بالضاد جيلا بعد جيل على إيجاده، وهو عبارة عن كنوز نفيسة تغنى عقل كل من ورد مناهلها بالحكم البليغة ، والعظات البينة، والأساليب المحكمة ، وغير ذلك مما لا يستغنى عنه الأديب الألمعى

وقصارى القول إن خير أسلوب يصلح للعلم والأدب على السواء هو

السهل الذى لا يحتاج الى كد الأفهام ، للتوصل الى الغرض منه . ولكننا نشترط فى الكاتب أن يكون غزير الاطلاع ، ملماً بأصول اللغة وقواعدها ، محسناً للأعراب عن رأيه بحالة لا لبس فيها ولا إبهام ، ولا تدع عند القراء شكا أو تحيراً . وأن يبتعد عن سفه الحلم ، والمغالطات المنطقية ، وأن يكون عماده حججا مسلما بصحتها ، وانطباقها على الحقيقة ، وأن تكون وجهة نظرة دائما الخدمة العامة ، والأخلاص الكامل لهذا العمل الشاق . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ويدلى بدررهم الكرام الكاتبون .

الوصيـــــة

اعتاد كثير من أغنيائنا اذا قاربوا أن ينفضوا عنهم غبار هذه الحياة ، أن يوصوا بضياعهم الواسعة ، ودورهم العامرة لذراريهم أو ذوى قرباهم، أو لمن يشاءون لمن يمتون اليهم بصلة . وقد يقف بعضهم الأعيان التى امتلكتها ايمانهم على أبنائهم وحفدتهم ، خوف ضياعها على يد الوارثين الذين لا يكترثون بثروة ، ولا يحفلون بمستقبل .

وليس المجال هنا نقد الوصايا ، ولا البحث فى مطامع الأوصياء ، واستقصاء ما يجنحون اليه من طرق وأساليب ليحرموا أصحاب الحقوق من رزق أغدق عليهم ، ولا معالجة الأسباب التى دعت الى إعطاء هذا وحرمان ذاك تبعا للأهواء والأغراض التى تسلب من الرجال عقولهم ، فيكتبون تحت تأثير الغواية ، فكلها أمور مرجعها علماء الشرع إذ يستطيعون أن ينوروا الأذهان ، ويبينوا للملأ عقاب الآخرة لمن لا يعمل حسب ما أمر به .

وهذه فى الحقيقة نقط اجتماعية جديرة بالعناية . إذ لا معني لأن يتمتع نظار الأوقاف بجل الموارد ، ولا ينال المستحقون ما يتبلغون به . وإن بدا ارتيابهم ، أو أعلنوا ألمهم ، سترت كشوف الحساب ألاعيبهم ،

وانتهى الأمر الى القضاء . وكم أصدر حكمه بعزل الكثير من هؤلاء، لقلة الثقة فيهم، وعدم توافر الأمانة عندهم .

بل كيف يرتضى الأنسان أن يعطى ابنا ويحرم أخاه . أو يخص البنين بالرعاية والبنات بالقسوة. والكل فلذات أكباده ومن دمه ولحمه، وهو سيلحق بالغابرين فليترك كل شيء على ما هو عليه ليقتسموه بما يرضى الله . وإن كان لابد من وصية فليكن أساسها العدل والأنصاف . ولذلك كان ما يخطه يراعى مبنيا على سنن المساواة ، ومصلحة الجميع بلا استثناء .

وإنى وإن تعرضت للوصايا المالية بإيجاز فانها ليست مما سأتناوله فى مقالى هذا ، لأن الفرق بيني وبين ذوى اليسار واضح . فأولئك يهتمون بحطام الدنيا . أما أنا فأهتم بالتربية الكاملة ورسم المثل العليا . وتراثهم يجزأ الى أنصبة خاصة بأفراد قد لا يزيدون عن أصابع اليد عـــدآ وتراثى غير قاصر على أبنائى وأترابهم، بل يتعداهم الى نابتة هذا الوطن المفدى .

ولعلك تندهش عند ما أسطر هذه الوصية إذا علمت أننى قطعت مراحل الشباب فى مقاومة الدهر ومحنه . فلم أستبق من موارد الكسب لا قليلا ولا كثيرا ، لصعوبة الموقف وخطورة المسئولية . ولست أدرى ما سيأتى به الغد ، ولا أتنبأ بما يحمله المستقبل بين طياته . ولو فرضنا جدلا وقدرنا المستحيل ، وضربت بسهم وافر فى الغنى ، ما تحرك قلمى لكتابة شيء من هذا القبيل .

إذن وصيتى لا تماثل غيرها مما ينسب الى ملوك الذهب والفضة . ومع ذلك أهتم بها اهتماما عظيما . وأتمنى إذا ما بلغ أبنائى مبلغ الرجال ، أو استطاعوا فهم بنودها ، أن يعملوا على الانتفاع بها . فهى فى نظرى أجدى

عليهم من مال لا يصلون اليه بمجهودهم الشخصي ، وعقار قد يكون موضع مغاضبتهم ومنافرتهم وانشقاق بعضهم على بعض ، وأرض ذرعها فوق طاقة الحاسبين . لأن ذلك يدعو الى الخمول والكبرياء،وفساد الاخلاق ، وصرف العمر فى الترهات وأبشع النزعات .

على أننى لا أقصر القول عليهم . بل أدعوشباب مصر الناهض لأن يشتركوا معهم فيه وأن يتدبروه بعقولهم الراجحة . لأنه مبنى على التجارب . ولا يملك أرباب الاقلام الا أن يهيموا فى كل ناحية من نواحي الحياة والأدب راغبين فى النصح والأرشاد .

إن أول ما أوصى به الجد فى تحصيل العلوم ، و ترك الأهمال جانباً ، والاعتماد على النفس فى معظم شؤون الحياة ، ومجاراة العظماء ، والمحافظة على الكرامة والشرف ، وتقدير المستقبل ، والعمل على الانتقال من حالة الى حالة أرقى كلما مرت السنون وتوالى الليل والنهار .

ولا أريد أن تلعب بكم الأهواء، بل اذا تبين لكم أن مصلحة الوطن فى اتباع طريقه مثلى ، فلا تحيدوا عنها ، مهما كانت الظروف بل إذا تطلب الأمر أن تضحوا براحتكم ، وكل مرتخص وغال ، فى سبيل رفعته ، لا ينبغى أن تتأخروا قيد شعرة عن تنفيذ ذلك .

ويغضبنى التقاعد فى كسر البيوت ، والخمول المزرى ، والتواكل على الغير ، وقبول الضيم والذلة والمسكنة ، والأذعان لغواية الشيطان . فقد دلتنى تجاربى ، على أن الاستقامة أحسن طريق نسلكه . إذ لا طائل تحت ارتكاب المعاصى والآثام ، إلا فساد العقول ، وخمود القرائح ، وجمود الوجدان ، والاندماج فى حمأة الرذيلة المؤدية الى ما لا تحمد مغبته.

وأكون سعيدا إذا لم تتهالكوا على الوظائف أيا كان نوعها . لأننى

لا أرغب فى أن تحبسوا مواهبكم ، الا إذا ضاقت السبل فى وجوهكم . وكم أكون مغتبطا إذا كنتم من أصحاب الأعمال . أو نزلتم فى ميدان الجهاد الاقتصادى ، ونافستم من هاجر الى بلادكم بعد طول ظعن ليجمع الثروة منكم ثم يعود من حيث أتى مسرورا بما ناله منكم وأنتم عنه غافلون .

ولا تغرنكم فتنة المدنية الغربية . فأنتم شرقيون لكم مجد أثيل وعظمة خالدة ، وقومية عرفها التاريخ قبل أن يعرف غيرها وللغربى عادات لا تتفق مع بيئتنا ، ومشارب لا تناسبنا ، وأهواء بيننا وبينها بون شاسع. وإننا اذا حفظنا علينا ما ورثناه من خلق وفضيلة ما حدثت بيننا علل اجتماعية ، وما انبرت الأقلام للقضاء على التيار الجارف ، الذى صحب التطور الاجتماعى الناجم عن التقليد الاعمى . وما يصلح للغربيين ليس من الضرورى أن يكون نافعا للشرقيين . وقد أثبت علماء الأخلاق أن الفضائل تختلف باختلاف البيئات والأماكن .

واذا وصلتم الى السن التى عندها تبدءون الحياة العملية ، فليكن شعاركم الأخلاص للمصلحة العامة ، والقيام بالواجب لذات الواجب فالتاجر منكم مثلا لا يغش الجماهير رغبة فى الاستحواذ على ربح طائل. والمدرس لا يتوانى عن نفع تلاميذه بوازع نفسانى . والصانع يتمثل بالحكمة العربية التى تقول ، (يحب الله إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه)

وفى الشئون العائلية يسرنى التضامن بينكم فيعطف كبيركم على صغيركم . ويعتبر كل منكم نفسه مسئولا عن سعادة الجميع ، ورفع شأن الناشئين إلى المستوى اللائق بعظمة الأسرة ولا تحفلوا بقول واش يسعي إلى هدم وحدتكم أو يثنيكم عما تقومون به من جلائل الأعمال نحو أقاربكم ، الذين يستمدون المعونة منكم ، أو يلجأون اليكم وقت كارثة أو فاقة .

وأبغض شخص فى نظرى الجبان الذى لا تحركه عاطفة ، ولا يلين قلبه المواقف العصبية التى تنزل بأصدقائه ومن يتصلون معه فى عنصر واحد إذ يجب المسارعة الى المعاونة والبر ، لأننى أريد أن تكونوا من أنصار المروءة فما خلقنا لأنفسنا فقط ، بل للإفادة والاستفادة وخيركم أتقاكم وأكثركم نفعا وأسماكم خلقا .

هذا بعض ما يجول فى خاطرى بالنسبة لكم أسبغ الله عليكم نعمه ، ومد فى آجالكم حتى تؤدوا ما يجب عليكم نحو بلادكم ، ورفع شأنكم ، وأعلى ذكركم ، وجعلكم من الكرام البررة ، والعاملين المخلصين .

قاموس السياسة

لو أنك رغبت فى البحث عن معنى كلمة عربية كانت أو أعجمية فأنك لا تجد فى ذلك مشقة أوصعوبة . فقد جمعت مفردات اللغات الحية ، ورتبت فى قواميس تشرح ما يحتمله كل لفظ من معنى صريح أو مجازى . وما لا تجده فى هذا قد تجده فى غيره . أى لابد لك من الوصول الى كشف ماغمض ومعرفة ماخفى إذا استعنت بهذه المعاجم .

ولكنه يتعذر أو يستحيل أن تدرك المعانى السياسية على علاتها ، أو تفهمها على حقيقتها ، لأن النبوغ فى السياسة موقوف على ما يظهره الرجل من الدهاء والمكر ، وما يدبره من الحيل وأنواع الخداع . ولأنها تعتمد على لؤم فظيع ووعود خلابة لا نصيب لها من الصحة ، وعهود الغرض منها تخدير الأعصاب خوف فوات الفرص وضياع الوقت . فاذا انفرجت الأزمة وزال الخطر ، لم تجد لهذه العهود أثراً ، ورأيتها أمرا خيالياً بعيدا كل البعد عن حيز التنفيذ .

ولقد اتفق الثقاة على ماتضمنته أسفار اللغة . ولكن السواس يختلفون فى الغرض ووجهة النظر وطرق حل المشكلات . وهم لا يتورعون أن يركبوا متن الشطط ، ويسلكوا مسالك الشيطان إن دعتهم مصلحتهم الذاتية أو الشعبية الى ذلك .

ولو شئت أدلة تاريخية لأثبات ما ندلى به اليك لما استعصى الأمر . خذ

لذلك مثلا مكيافلى الذى يدعو الحكام إذا رغبوا فى ان يطاعوا الى التجرد من المروءة والدين والشرف . وخذ لذلك مثلا آخر مترنيخ وزير النمسا نصير الرجعية ، الذى قاوم الحرية ومبادىء الديموقراطية ، وطارد المتشبعين بروح القومية والوطنيـــة بكل ما أوتى من قوة . لا لذنب جنوه ولا لجريمة ارتكبوها وإنما طبيعة بلاده اقتضت ذلك .

إن العلماء يخدمون الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، والمخترعين يكفلون لهم وسائل الراحة . ولـكن السياسيين المعتمدين على القوة الغشومة يتضافرون على إذلالهم ، ويتفننون فى الايقاع بهم ، ويبذلون جهداً جهيداً فى إقلاق راحتهم والتنكيل بهم إن عارضوا ، أو رغبوا فى الخلاص من قيود الاستعباد ، أو قاوموا ما حل بهم من مهانة وضعة .

وإنك لتسمع من بعض هؤلاء أن بلادك ذات استقلال كامل غير منقوص ، بل هم يعترفون بذلك رسميا ، ويعلنون هذا الاعتراف على الملأ ولكنهم لا يولون وجوههم شطر بلادهم ، أو أى جهة أخرى لهم فيها نفوذ أو سيطرة . إذ لا يزالون بين سمعنا وبصرنا يشرفون على مجرى الحوادث عن كثب ، ويستمر مستقبلهم كماضيهم له اتصال بنا . وما هذا الاعتراف إلا حل سياسى تطلبته الظروف وقت التصريح به .

ومما يزيد فى غموض المعانى السياسية أنها لا تستند الى الأصول المنطقية . لأنها تتمشى مع التعصب الحزبى أو الجنسى ، ولا تبتعد عن المغالطات وإن أعوزها الأمر احتكمت إلى الحديد والنار . وأكثر من هذا أنها لا تقترن بصدق أو صراحة ، ولا تتفق مع حق أو يقين .

وإذا كان هذا شأنها مع فريق السياسيين الذين يقودون سكان العلاقات الدولية للاحتفاظ بمكانة شعوبهم وعدم تعرض سلطانهم للدمار ، فأن شأنها

أشد فظاعة مع الذين يستخدمون مواهبهم فى الحملة على المخلصين من مواطنيهم، والحط من قدرهم وتسويء سمعتهم بالباطل .

على أننى أستثنى من كل هـذا السياسة الرشيدة التى يسير عليها الخدام الأمناء لأمة تغلب عليها غيرها ، واعتدى على حريتها وسؤددها ، ووقف حجر عثرة فى سبيل نهضتها . فأولئك يعملون عن عقيدة وإيمان ، ويقصدون إلى رفعة وطنهم ولا ينتظرون جزاء ولا شكوراً ، ولم لا يكونون أنموذجا يحتذى ، وهم يعملون فى ضوء النهار ويقاومون وهم عزل من كل سلاح إلا سلاح الحق ، والتفانى فى الوصول إلى المكان اللائق بالكرامة والشرف . وتلك سياسة حكيمة رائدها (الصدق فى القول والأخلاص فى العمل) وغايتها (الاستقلال التام أو الموت الزؤام) . ولا يثنيها وعد أو وعيد ، ولا يعطلها تشريد أو تهديد . وعمادها الثبات على المبدأ والشجاعة الأدبية والتضحية الكاملة ومناصرة المظلومين ورد كيد الخائنين .

ومهما تناقضت أساليب السياسة وتغايرت وسائلها ، كنت جديراً بالاحترام لو شايعت المخلصين ، وسعيت معهم لنهوض الوطن من كبوته لضمان عزه وسعادته .

ولا أستطيع أن أترك هذا الموضوع إلا بعد التعرض لأولئك المنافقين الذين ينكرون الشمس فى رابعة النهار ، ويكتبون المقالات الضافية لمناصرة شهوة حزبية ، أو ء لأه فريق يمكن الانتفاع من نفوذه أو ثروته . وهم فى ذلك لا يسيئون الى العاملين والمبادىء الحية فحسب ، بل يسيئون الى أنفسهم وأمتهم .

أولئك عباد أطماع يصطادون فى الماء العكر ، ولا يعبرون عن رأى سليم ، وهم يعلمون تمام العلم أنهم مسوقون لأشباع بطونهم ليس إلا . وأنهم

يلمحون قبل غيرهم تناقض آرائهم ، وارتباك عباراتهم ، ووهن حججهم ، واستهزاء الجماهير بهم . إذ ترى ألفاظا بذيئة ، وفقرات ملؤها الوقاحة والسباب ، هي بالسوقة أجدر وبالسفلة أحرى . وكل ما يمكنني استخلاصه من كتاباتهم وبحوثهم أن قاموس السياسة لا يزال يرتكن على الغواية والتضليل ، والاساءة الى الزعماء المخلصين .

لكل ماقدمته أمقت السياسة التي لا تتمشى مع مصلحة الوطن وأميل الى الأدب كل الميل لأن الأولى فيها تسميم العقول وإرباك الأذهان . وأما الثاني فقيه بغية الطلاب وغنيـــة القراء ، وغذاء القلوب وطب النفوس وعلاج الأمراض الاجتماعية وخدمة الانسانية ، ورقي الوجدان ، وحفظ اللغة من الضياع ، وفائدة الناشئين والراشدين .

غـرفة الصور

كان لى صديق أجله وأحترمه لصلاحه وتقواه ، ومحافظته على ود عارفيه . وامتاز بين سجرائه بلين الجانب والبشاشة ، وخدمة إخوانه . ولا عيب فيه سوى أنه كان يقفو زلات الأنام ، ويتعقب سيئاتهم ، ليشهر بهم ، ويروى أخبارهم . وحجته فى ذلك واهية ، إذ غايته السعي وراء الفضيلة ، والعمل على نصرتها ، فى هذا العصر الذى نضب فيه معينها .

وكنت أظن أن النجوم أقرب إلى أيدينا من زعزعة عقيدته نحو المدنية الغربية . وما دريت أن كثيرا من الناس يظهرون غير ما يبطنون ، وأن الأيام كفيلة بأن ترينا إياهم فى أثوابهم الحقيقية ، مهما بالغوا فى إخفاء أمورهم ، أو أغرقوا فى التظاهر بغير ما ينطبق عليهم .

ولأمر ما ضرب الدهر بيني وبينه زمنا طويلا . ولم أعد أعلم عنه شيئا . وبينما كنت ماراً فى الطريق ليلة أمس ، إذ قابلته مصادفة فتلقانى ببشره المعهود ، وأقسم أن لابد من مصاحبته الى منزله ، لنمضى هزيعاً من الليل فى المحادثة والسمر . فلبيت طلبه تحت تأثير أقسامه وسرنا الهوينى ، وإن هى إلا دقائق معدودة حتى صرنا أمام داره ، ثم دخلناها آمنين .

وصحبنى الى الغرفة التى يستقبلون فيها الضيوف عادة ، فوجدت أثر النعمة ظاهراً فيها فلقد حوت أثاثاً فاخراً وفراشا وثيراً .

ولذلك حمدت الله إذ بدل عسر صديقى بيسر وخصه برعايته وفضله . ولكن الذى أدهشنى أن رأيت الجدران مزدانة بصور كثيرة ، منها الكبير ومنها الصغير ومن بينها الملون وغير الملون .

ولو أن الصور كانت لبعض العظماء ، أو لمن لهم شهرة تاريخية أو علمية أو وطنية ، ما دهشت ولا تعجبت . فتلك مناظر ألفناها فى غرف الاستقبال لدى الأثرياء وأوساط الناس . ولكن الذى استرعى نظرى ، أنها جميعها خاصة بفتاة واحدة . ودفعتنى غريزة حب الاستطلاع الى الاستفسار عنها . فأجابنى أنها لكريمته الآنسة .... وأنها ستأتى حالا لتشترك معنا فى الحديث . لأنكم معشر الأدباء لا يرضيكم إلا مقارعة الحجة بالحجة . وهى قمينة بأفناعى فى المواضيع الاجتماعية التى يعجز عن خوضها أمثاله . وزاد على قوله بأنها ستتولى بنفسها سرد ما يتعلق بها ، لأنها أدرى بملابساتها ، وأعلم بمناسباتها . فوجهت إليه سؤالا ثانيا وهو هل يستقبلون الرجال فى هذه الحجرة فكان رده بالايجاب ، فكان حديثه أدعى إلى الدهشة والاستغراب من صور ابنته .

وبينما أفكر فى هذا الأمر ، إذ فتحت الباب غادة سافرة فى العشرين من عمرها .

قد بدت فى حلة سندسية ، بعد أن كشفت عن ساقيها وذراعيها وصدرها ونحرها ، وتقدمت نحوى بقدم مطمئنة ، وحيتنى وجلست . ثم بدأت تناقشنى فى بعض أبحاث خاصة بالمرأة كالسفور والحرية والمساواة بينها وبين الرجل . وقد تبين لى من آرائها الضعيفة وأدلتها الملتوية أنها لا تفهم من هذه المواضيع إلا أسماءها . غير أن الذى أذكره عنها فى مساجلاتها ومحاورها منعها الكلفة . كما لو كنت بعلها أو أخاها ، أو من ذوى قرباها ، أو لى معرفة بها منذ عشر سنين .

وهى تنظر فى مرآتها لتصلح أخضبة وجهها . وإذا بأبيها يقول لها أن الأستاذ يرغب فى رؤية صورك ، فما أبطأت ولا تمنعت وأخذت تعرضها على صورة صورة . وكلما أظهرت اعتراضا أو استغرابا ضحكت ضحكة لها قيمتها عند صرعى الغوانى ، ولعلها علامة الخجل أو عدم الاكتراث.

وأول ما رأيت ، صورتها فى ثياب بيضاء ، على نحو ما ترتديه العروس فى ليلة بنائها ، فقلت فى نفسى لعله الحنين إلى الزواج . ثم أرتنى صورة لها فى رداء قروية تحمل جرة فما ارتبت ولا تأملت ولكن أفظع ما قطع على سلسلة التفكير أن تزيت بزى راقصة لها من الخلاعة ما للراقصات حرفا بحرف . وفى صورة أخرى سترت من جسمها أقل من النصف وفى رقعة أخرى جعلت الخلف بارزا للناظرين. وكثير غير ذلك مما يمنعنى الحياء والأدب عن ذكره .

وشعرت كأنى فى أضيق الحبس واستأذنت بان يسمحوا لى بالانصراف وهم يتمسكون بأهدابى ، مبالغةمنهم فى إكرامى . وماصدقت أن خلا لى الجو حتى تسللت من المنزل . وقد خشيت أن يرمقنى أحد ، فيظن بعضهم بى الظنون .

هذه رواية زميل لا أتهمك فى أمانته وتدل لهجته فى سرد الحوادث على صدق دعاويه ، ولكنه كان يهول فى الرأى والتعليق كأنها أول حادثة من نوعها . ولو علم أن الفتيات يملن إلى الخلاعة ما حمل حملته الشعواء على بطلة الصور ، فأن لها من نظيراتها من لا يدخلن تحت حصر .

وخير للفتاة أن تبتعد عن الخلاعة لأن الشاب إذا رغب فى الزواج ، لا يطرق بابها ، بل إن من أسباب أزمة الزواج ، هو عدم اطمئنان الرجال إلى هذا النوع وإذا جد الجد رأينا بعض الناس يتطوعون لتشويه سمعتها، وصرف ذهن الفتى عنها . وفى مثل هذه المواقف تؤثر المؤثرات لأبسط شبهة.

وإن كنا نسوغ لها أن تصور نفسها حسب مشيئتها فأننا لا نرتضى أن

تجعل صورها فى متناول كل يد ، وفى الغرفة التى يستقبلون فيها الرجال ، وكيف تستحسن ثوب الراقصات، وهو فى عرف الكثيرين رمز الانحطاط الخلقى . بل إذا سألت إحدى المحترفات منهن ، لتبرمن عند الاجابة . وبدا لك منهن ألم دفين . وأفهمنك أنهن مادخلن هذا الميدان ، وما تسابقن فى هذا المضمار ، إلا لفاقتهن وحاجتهن إلى كسب القوت .

وللفتاة أن تفعل ماتحب ، إلا ما له مساس بسمعتها . ولنا فى أبيها أكبر برهان على صدق قولنا . فلقد استقينا من الراوى ، أنه كان يتعقب السقطات ، ويملأ بها الجو . ومالها ولتهجم الناس على سيرتها بالحق وبالباطل، وأن منهم من يجعل من الحبة قبة ، ومن يتخذ من أتفه الأشياء وسيلة للتشهير والتنكيل والأساءة .

والصور الشبيهة بهذه من مستلزمات المراقص ونحوها لاجتذاب الجماهير والتأثير عليهم . ولكن لا قيمة لها فى مساكننا الخاصة وإن للعلم لشرفا لا ينبغى أن ينتقص الناس من قدره . وإنى لأخشى أن يعزى هذا التهتك اليه ، وهو برىء من تلك الفوضى الخلقية . ولا شك فى أن الحملة على تعليم الجنس اللطيف مبعثها أمور سخيفة كهذه .

ولقد قص الراوى قصته فى جمع حافل . فاذا العيون محدقة ، وإذا الأعناق مشرئبة ، وجل السامعين يتساءلون عمن نحن بصددها ورجاه بعضهم أن يصحبوه لمثل هذه الزيارة ، والله أعلم بما تكنه ضمائرهم . وفوق ذلك فأن فى الاختلاط ما يشين . وقد تحدث أشياء لا تحمد عواقبها .

وأخيرا لاينبغى أن نزين الغرف إلا بصور عظماء الوطنيين ، تقديراً لهم، واعترافا بفضلهم . ولنجعل أمام الناشئين مثلا أعلى يحتذونه وينسجون على منواله ، وليذكروا دائما أن خدمة الأوطان أشرف غاية وأرقى مقصد .

قبلة بالاكراه

هى فتية غراء فرعاء ، مسلمة لاشية فيها ، خلقت كما شاءت ، وتكونت كما رغبت ، ولمنظرها روعة تبهر من رآها ولو كان من الناسكين المتعبدين الذين لا يهتمون بزخرف الدنيا ولا يأبهون بأمورها وشئونها .

ويقول الثقاة أن أدبها جم وخلقها حميد ، فهى تمر باللغو مر الكرام ، وتمشى على استحياء ، وتقدر عاداتنا الشرقية تقديراً جميلا ، فلا تختلف إلى شاب ، ولا تكترث بالملاهى ، ولا يطربها نعيق الراغبين فى التأثير على عواطفها ، وأبوها رجل فاضل يهتم بتثقيفها ويشرف على مستقبلها ، ولا يضن عليها بالمال الوفير فى سبيل شحذ ذهنها بالعلم الصحيح ونيل الشهادات المدرسية القيمة .

ولم يعجبه أن تلقى عصا التسيار العلمى عند حد ما يتلقاه زميلاتها فى مدارسنا الخاصة بأترابها ومن على شاكلتها ، فأوفدها إلى إحدى الجامعات الغربية لتضرب فى العلم بسهم وافر ، وصم أذنيه عن كل رأى يتعلق بزواجها لأنه رأى منها انكبابا على الدرس والتحصيل ، وميلا إلى سمو المكانة الأدبية .

ومضى عام يتلوه عام إلى أن سلخت من عمرها خمس حجج فى تلك البلاد النائية بعيدة عن الأهل والوطن ، وإنا لا ندرى أنالت بغيتها أم

عادت بخفى حنين . ونحن لا يعنينا سرد تاريخها لأنها ليست من شهيرات النساء ، وإنما اتخذناها أساساً لمقالنا لأن لنا فى نزعة بعض المتعلمات فى الخارج مايحملنا على إبداء ملاحظاتنا وإن كانت الحقيقة مرة ومؤلمة أحيانا.

عادت من غربتها تزهو على الناس حتى على أساتذتها ، وتمجد الغرب ونظامه ، وتلعن الظروف التى حكمت عليها بالعودة ، فلا منازلنا ترضيها ، ولا شوارعنا تعجبها ، ولا جونا مما يلائم صحتها ، ولا مجتمعاتنا تتناسب مع مزاجها ، وهى فى كل حركة وسكون تقارن بيننا وبين سوانا ، وتدلل بكل ما أوتيت من قوة على أفضلية الغير علينا ، وفواقهم فى كل شأن من شئون الحياة حتى فى الأخلاق والعلاقات الاجتماعية .

ولكنها تنقض نفسها بنفسها ، إذ تقص عليك فى حديثها عن ذلك الشعب الراقى فى نظرها مايمكنك أن تستنبط منه أن مصر خير أمة أخرجت للعالمين لو أن هذا هو الحال فى تلك الأمم التى بعدت بيننا وبينها الشقة .

ولم نعد نرى منها ذلك الهدوء المشفوع بالحياء ، ولعل الزمن سبب فى نقص درجات جمالها فلا تغتر به فتاة ، إذ استعاضت عن الحمرة الطبيعية بحمرة صناعية ، وعن قوة الشباب وعنفوانه باصفرار يدعو إلى الأسى والأسف بالنسبة لها ، ولما كانت فى شرخ الصبا لم تتدله على أحد ، فلما تقادم عليها العهد تغيرت تلك الصفات الجميلة والغرر الحميدة والله أعلم بالدوافع التى حملتها على ذلك .

ولقد روى لى أحد أقاربها عند شرح نقده عليها ، أنها تكرهه على تقبيلها أمام الجميع حتى فى حضور والدها ، وإذا امتنع تنهال عليه زغداً ولكنها على سبيل المداعبة طبعا حتى يجيبها إلى طلبها .

وقد يكون قريبها صادقا أو كاذباً ، ولكنها رواية لها قيمتها فى نظرى

وليس لدى من الوسائل ما يحملنى على تكذيبها ، وبخاصة لأنها دائما كانت تقول أنها ضربت الرقم القياسي فى الشرب فى إحدى الحفلات الساهرة مع بعض الزميلات فى أوقات الفراغ فى مدينة الملاهى ، وإذا قابلتها فى الطريق وجدتها متأبطة فاذا قلت : من هذا ؟ قالت صديقى فلان أو عزيزى فلان أو شقيق صديقتى فلانة .

ولا أدرى ما السر فى هذا الانقلاب ، ولا أعتقد أن الثقافة الأجنبية هي التي أنتجت ذلك ، وإنما هى طرائقنا نحن نترك السمين ونهتم بالغث ، ولا نعنى بالمحاسن بل بأضدادها ، وإذا جاز هنالك اتخاذ الأصدقاء فانه لايجوز هنا صلات بغير الأب والأخ والزوج .

ويدعى بعضهم أن للانسان صفحتين : صفحة الماضى وصفحة المستقبل ، والأولى تدل على الثانية ، ورغبتنا أن تكون صفحات حياتها بيضاء ناصعة لاتشوبها شائبة ، وبودى أن تعود إلى الماضى الزاهر ، إذ لها فيه أسوة حسنة ، ولا داعى للقبلات بالرضا أو بالاكراه ، لأن القوم يتغامزون ويتلامزون ويهزءون ويسخرون عند حدوثها . ويرسل أحدهم النكتة تلو النكتة لاستهجانه هذا المجون ، والعهدة فى سرد هذه النقطة على الراوى .

ولم يكره شاب على منكر أو مبادىء الشروع فيه ؟ وهو إن أكرهها على ذلك أو اغتصب منها قبلة قسراً حمله القانون تبعة الاعتداء على شرف الغير واعتبر عمله جناية لا تغتفر .

لها العذر لو كانت جاهلة لأنهم يقولون إن الجهل عمى ، ولا تستحق كل هذا اللوم لو تعلمت نزرا يسيرا إذ يقولون القليل من العلم يضر ، ولكنها تثقفت تماما ، ولها آراء علمية وأدبيـــة تعجب المفكرين وتقنع الأدباء والعلماء .

رجوعاً أيتها الآنسة المبجلة إلى عادات عشيرتك ، فلك فيها غنية عن الغرب وأثره السيء ، واستمسكي بالهدى فهو خير حلية تزين صدرك وتتوج رأسك ، وسامحيني إذا تهجمت على مقامك الرفيع ، فأنت مصرية يؤلمني أن يتحدث عنك المصريون وغير المصريين بما لا أرضاه لك من العظمة والاجلال . وأسأل الله أن يحفظك من العثار وأن يهب لك من أمرك رشداً ، وأن يوفقك إلى قبول النصيحة والعمل بها على الدوام .

دراسة التاريخ

يظن كثير من الناس أن دراسة التاريخ من البساطة بمكان،وأنها لا تحتاج إلى عقل راجح، أو تعمق فى البحث، أو استفاضة فى التعليل.فالمسألة لا تتعدى سرد وقائع وجمع حوادث ، بترتيب أو بغير ترتيب ، مما دونه المؤرخون فى مختلف العصور ، عن أمور شاهدوها بالفعل ، أو نقلوها عما تركه أقوام سبقوهم فى الحياة بجيل أو بأجيال .

وهم يذهبون إلى أكثر من هذا فينكرون على التاريخ أهميته ، ولا يعترفون بأنه المرآة التى تعكس لنا صور الماضى، فنتخذ منها عظات وعبرا، ونقلع عن عيوب لولا أننا رأينا عواقبها الوخيمة فى صفحات الماضى لنالنا منها أضرار جسيمة . ويشتط فريق فيرى أن الحاجة ليست ماسة إليه الآن ، وأن الزمن قد تطور فانقطعت أواصر الصلة بين الماضى والحاضر، وتغيرت معالم المرافق الحيوية فليس من داع إلى الرجوع إلى العهد العتيق مادمنا لا نجد فيه مشابهة لما نجتازه من النظم .

ولطالما هاجمنا المعجبون بالرياضة والمختصون فى فروع الطبيعة عند المفاضلة بين العلوم والآداب، بأنه لا استقرار له، ولا إجماع على ما انطوت عليه كتبه . بل قلما وجد كاتبان يخوضان عباب بحاره يتفقان فى الرأى ووجهة النظر .

وربما كان لبعضهم العذر ، فإن التعصب أحياناً يجعل البحوث محوطة بالشك ، والمعلومات مشوهة ، لا تنطبق على الحقيقة والواقع ، ورواية الأخبار بوساطة أفراد يختلفون فى الجنسية والدين والأغراض يريبنا فيما نقرأ ويزيد الأمر تعقيدا فى الاستفادة مما دون عنه فى الشرق والغرب والحاضر والغابر .

ومن الرواة من يحرف الكلم عن مواضعه ، ويبدل فى الأسانيد الصحيحة إرضاء لعظيم ، أو خشية سلطة حاكمة ، أو فرارا من عقاب دولة أجنبية لها سيطرة ونفوذ على شعوب مستضعفة ، أو جريا وراء حطام الدنيا لمالأة دعاية خاصة أو لأثبات عكس ماتم تهدئة للشعور الثائر على نحو ما كنا نطالعه من الأنباء فى عهد الحرب العظمى .

من أجل هذا نجد المطاعن يتلو بعضها بعضا على هذا النوع من الدراسة . وبخاصة إذا علمنا أن بعض المراجع المعتمدة تتمشى مع الخرافات والترهات ، وكذلك فهى مستمدة من الأقاصيص الشائعة على ألسنة العوام . مثال ذلك ما كتبه هيرودوتس عن تاريخ مصر فى عصورها القديمة .

ولكن على الرغم من كل ذلك فإن دراسة التاريخ ألذ دراسة عرفت ، ولا يدرك قيمتها إلا الراسخون فى العلم الذين ضربوا بسهم وافر فى مختلف العلوم والفنون . بل هى فى حاجة إلى الألمام بقواعد المنطق وأصول علم النفس ، ومقدرة ذهنية على التعليل والاستنباط وقبول السمين وترك الغث ، والاعتماد على أوثق المصادر وأصدقها . ومما يعاون الراغب فى التعمق فى أقسامه ، والنجاح فى استيعاب بنوده ، البراعة فى اللغات الحية ليسهل فهم الباب الواحد فى أسفار شتى لاتعبر عن نزعة واحدة أو غرض خاص . فإن كان الكلام متعلقاً بما له مساس بفرنسا مثلا أضفنا إلى تلاوة

الأمهات الفرنسية أخرى انجليزية فوق ما نجده مسطورا باللغة العربية. وأعتقد أن العقل السليم بعد تلاوة كل هذا يستطيع تكوين رأى يعتد به بعيد عن التحزب والمغالاة وطمس معالم الحقيقة .

ولعمليات الحفر الحديثة ودراسة الآثار ، وكشف ما غمض من أسرار اللغات القديمة أكبر عون لتنوير الأذهان عن مدنيات درست ، وأمم عاشت فى القرون الاولى ، ونظم تعرض لها أمثال المصريين والبابليين والفنيقيين ومعاصريهم . وليس من شك فى أن عمليات الكشف الأخيرة عندنا وعند غيرنا لها أثر ظاهر فى تطور المعلومات التاريخية ، وزيادة وضوحها ، وزوال الشكوك التى حامت حولها أمداً طويلا .

وإذا دققنا النظر قليلا لتبين لنا أن التاريخ هو سجل الحوادث الماضية ، والحافظ لتراث أجدادنا القدماء، وناقل الفلسفة الاغريقية إلينا ، والينبوع الذى تفجرت منه جهود الأجيال الماضية من علم وأدب وسياسة وفن . وهو الصلة بين القديم والحديث ولنا فى الماضى عظات تعيننا فى المستقبل .

وإذا كان هذا شأنه فمن الواجب أن يكون المؤرخ حراً فى إصدار حكمه ، حسب المقدمات الصريحة التى وصلت إلى يديه. وعليه أن يرجع إلى الوثائق الرسمية إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن يرتب عمله بحالة تستسيغها عقول المحصلين لما يتركه لهم .

ويحسن العدول عن تلك الطريقة البالية المتعلقة بحشو أدمغة التلاميذ من غير طائل . فان ملء البرنامج بكثير من الدروس على أن تلقن فى زمن وجيز، يجعلها تكتب ملخصة وتشرح بمنتهى الايجاز. ولو أفسح المجال لمواضيع أقل ، لوفاها الأساتذة حقها ، ولانتفع رواد المدارس انتفاعا حسنا .

ومما يؤسف له أننا مازلنا نعنى بسرد الوقائع الحربية، ولا نحفل إلا

بأخبار تدمير المدن العامرة ، وترويع الآمنين المطمئنين، وترميل النساء وتيتيم الأطفال ، ولا نجد إلا المنتصرين فى ميادين القتال . على أن هذه العظمة لم تبن إلا باتباع الوحشية ، والفتك بجماعات من الجنس البشرى ، وياحبذا لو وجهت العناية إلى الاستفاضة فى المدنيات قديمة أكانت أم حديثة ، وفى تاريخ التربية والنظريات السياسية، وسر نهوض الأمم التى نالت مكانا عليا من حيث الحضارة والصناعة ورفاهية الأفراد ، مما له مساس برقى الجنس البشرى وخدمة الانسانية .

ونرجو أن يسد علماؤنا الأعلام فى هذه المادة الجليلة الفراغ الموجود فيؤلفوا للثقافة العامة ما يعن لهم من المباحث التاريخية - وهى كثيرة جدا - لا على نسق مايدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية فأنها تسير على سنن محدود لايمكن التوسع فيه وإنا لما يتفضلون به لمنتظرون .

المشاريع الوطنية

لنا فى معشر المتعلمين أسوة حسنة فى نهضتهم الأخيرة ، فلقد ساهموا فى المشاريع الوطنية وشجعوا على نموها ونجاحها ، والأخذ بيدها وإحلالها محلا يليق بكرامة الشعب المصرى الجليل .

وكنا نرى فى العهد الغابر إذا نال فرد قسطا ولو ضئيلا من العلم ، أو حصل على شهادة ولو لم تكن من الشهادات التى يعتد بها ، ولى وجهه إلى وظيفة يشغلها ، وجل ما تصبو إليه نفسه أن يتربع على كرسى من كراسى المصالح الحكومية وهى أمنيته التى ما بعدها أمنية .

فلما فقه الأجانب هذه الحالة ، وآنسوا منا عدم الرغبة فى السيطرة على الشئون الاقتصادية ، ووجدوا أن الجو خال لهم ، ملكوا ناصية الأمور التجارية وما إليها . وكونوا فى ربوعنا مراكز لا يستهان بها درت عليهم الخير العميم والربح الوفير ، ونحن فى غفلة من تسرب ثروتنا إليهم . وهم لا ينفقونها هنا وإنما يأخذونها أكداسا مكدسة إلى أوطانهم .

ولو أنك سرحت الطرف قليلا فى مدينة كالقاهرة لوجدت لهم من المتاجر والمصارف والملاهى والمقاهى مالا يدخل تحت حصر ، هذا فضلا

عن مسارعتنا إلى التعامل معهم، وترويج بضائعهم ، وإهمال كل ما هو مصرى. ولو علمنا أن الأخذ بيد المصريين من أقدس الواجبات لوضعنا الحجر الأساسى فى سبيل استقلالنا الاقتصادى .

وإنى لا أحمل الأجانب تبعة أو قصورا ، فأنا على حدقول أحد أبطالنا السالفين (أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا) . وإنما أود من صميم فؤادى أن نقبل على ما يقوم به ذوو الهمم العالية ممن أنجبتهم مصرنا السعيدة . أمامكم (السينمات) الوطنية فشجعوها ، والبضائع المصرية فروجوها ، والمشاريع الخاصة بنا فثبتوها ، لأن فى حياتها حياة لكم ، وفى ارتفاع قدرها برهان صريح على أنكم تنتسبون إلى خير أمة أخرجت للناس .

وإن القرش الذى يخرج من جيب المصرى إلى جيب زميله هو فى الحقيقة باق فى خزائننا لا يتعدى بلادنا. وعلى النقيض من ذلك لا تؤدى واجبا وطنيا ، وإنى أربأ بشباب النيل أن يكون كذلك. ويجب أن تكون نهضتنا المباركة مشفوعة باليقظة الكاملة والعمل الدائم على ما فيه رفعتنا وسؤددنا ، وأن نسدد خطانا باتباع مثل أعلى لأحياء مصنوعاتنا ومتاجرنا . وحيا الله القائمين بتنفيذ هذه النظم الجليلة التى جعلتنا نشعر بشخصياتنا ، وننفض عنا غبار الخمول ، إذ لنا بفضل هممهم فى كل يوم مشروع وفى كل آونة ثمر وأختها فكرة صائبة فى تحقيق هذه الأغراض السامية .

ولقد نادى المنادون بمقاطعة كل عمل لا يمت إلينا بصلة ولم تجمع رءوس أمواله من أفرادنا، أو لم يعد على مجتمعنا برجع كبير فأهمل جمهور عظيم هذه الدعاية ولم يحفل بها أصلا. والرأى عندى أن نقبل على أعمالنا الخاصة ومتاجرنا التى تنتسب إلى وادى النيل لنستطيع أن نهيء الظروف الملائمة لمكافحة

البطالة ، ونمكن لفريق من إخواننا المتعلمين أن يجدوا مرتزقا .

وفى الأرض أمم لا تسمح حكوماتها بأصدار نقود منها ، بل لابد لمن يرسل إليها أية سلعة أن يأخذ فى نظيرها مما تنبته البلاد أو تصنعه . وفى ذلك على ما يظهر احتفاظ بالثروة القومية ، وتشجيع للمحاصيل المحلية ، وترويج لما قام به عمالها من غزل ونسج وغير ذلك .

والحقيقة التى لامراء فيها أن فى مصر الآن فريق من النابهين قضوا على هذا العهد العتيق ، بهمة لا تعرف الكلال . خذوا لذلك مثلا أصحاب فكرة مصرف مصر وشركاته المتنوعة ، ولكن لايزال كثير من أغنيائنا لا يحققون الأمل فيهم ، بخزنهم الأموال فى دورهم ، أو فى بعض المصارف من غير فائدة تعود على الوطن والمصلحة العامة . ولو أنهم تعاونوا على البر وتساندوا فى إعداد العدة للأكثار من المشاريع وإخراجها فى حيز الوجود ، لزادت ثروتهم ، ومنعوا ضائقة مالية نزلت بجيش عرمرم من العاطلين .

ونود لو أن القائمين بالمشاريع ألا يخلطوا بين السياسه الخرقاء والمنافسة الشريفة ، فلا يتخذون من مشروع وسيلة لمناهضة حزب أو مقاومة زعيم ، أو وسيلة لنفوذ فريق على فريق فما كانت الوسائل الاقتصادية إلا موئلا لأفراد المجتمع بلا استثناء . وهى فى الواقع من عوامل الاتحاد لا التفريق ولا يعلو لها شأن إلا إذا وضع الجميع أيديهم فى أيدى بعض ، وساروا إلى الأمام رائدهم الأخلاص والدقة والأمانة .

وهنالك نقطة لا يجب إغفالها ، وهى تتعلق بحضرات التجار الذين تربطنا وإياهم روابط الجنسية والأمانى القومية . فلقد قرأنا لهم كثيرا من الأعلانات المتضمنة انضمامهم إلى هذه الحركة ، واهتمامهم بثمراتها . والأمل معقود على أن يقيدوا أنفسهم بما سطروه بأقلامهم ، وأن يمتنعوا عن غش

الجماهير ، وأن يعدلوا عن الألفاظ المعسولة. ولو اقتضى الأمر التضحية بشيء من الربح لا ينبغى جشع ولا طمع . وإن وطنية التاجر فى هذا الموقف الدقيق هى الأولى من نوعها ، لأنك لا تتطلب من المستهلكين جميعا أن يكونوا على علم بما هو وطنى وما هو غير وطنى . ولكن التاجر أدرى بالفوارق وأعلم بالسلع وأنواعها ومصادرها . وفقنا الله جميعا إلى صالح الأعمال ورفع ذكرنا ، وأعلى شأننا ، وأزال الأحقاد من صدورنا، وجعلنا إخوانا مخلصين لا تقاطع بيننا ولا انفصام لعروة اتحادنا ووئامنا .

تمرد المرأة

لست فى معرض الحملة عليها والنيل من مقامها الرفيع ، ولا أقصد بهذا العنوان أن أبرهن للملأ ضعتها وقصورها وانحلال خلقها ،وإنما هي نقط اجتماعية أردت جمعها فى فصل واحد لتحليلها وبيان أسبابها ونتائجها ،حتى تبين لنا إلى أى مدى تنقلب المرأة من حمل وديع إلى وحش كاسر .

أنها تتمرد إذا أهملنا تربيتها، وأنبتناها نباتا غيرصالح . لأن الجهل يعوقها عن الانتفاع بثمرات القرائح ، ويقعدها عن إدراك النتائج المترتبة على الخلق السيء ، فيعظم استكبارها إذا كانت غنية ، واستهتارها إذا كانت فقيرة . وعلى كلا الحالين يصعب قيادتها ويتعذر أن تكون مصدر خير وسرور لبعلها، وتتجه فى حياتها اتجاها لا يرتضيه العقلاء وذوو الفكر السليم .

وتتمرد إذا بنيت لها على غر ضعيف الأرادة ، فهى كلما وجدت منفذا للسيطرة عليه لا تتأخر عن ذلك ، حتى تصبح صعبة الاحتمال . أو إذا أرغمتها على الزواج ممن لا ترتضيه شريكا فى الحياة ،لوهن فى مركزه أو لمغمز فى صفاته ، أو لأنها عقدت آمالها على سواه ، وعندئذ يصعب عليك اتفاق روحين يختلفان فى المشارب والطباع والرغبات .

وتسلك هذا السبيل إذا أخذتها على غرة ، وطوحت بها بين يدى هرم هو إلى القبر أقرب ، أثر فى جسمه المرض وأضعفه كر الغداة ومر العشى ،

بينما هى فى ريعان العمر وشرخ الصبا . وهنالك تفاوت واضح بين جد الشيخوخة ومرح الشباب .

وليس من شك فى أن الآباء الذين يرغمون بناتهم على الزواج من الطاعنين فى السن ، طمعاً فى الحصول على ثروة منهم عن طريق الميراث إذا حضر أحدهم الموت ، يسيئون إليهن إساءة لا تغتفر ، لأن مدى الحياة مجهول وسر من الأسرار التى لا يدركها إلا الله .

والزواج ينبغى أن يكون أساساً للسعادة والغبطة ، لا للآمال الموهومة المصحوبة بالنكد وإيلام النفس .

وهى لا تتورع عن أن تنغص عليك العيش باستمرار لأنك أسأت معاملتها مرة بعد أخرى ، فهبت تدفع عن نفسها العدوان . فلما رأتك دائبا على إهانتها لم تتوان قيد شعرة عن مجاراتك فى ما أقدمت عليه ، وإذا بكما تختصمان آنا وتتسابان آناً ، وتحول المنزل من هدوء إلى صياح وعويل وألفاظ بذيئة . فآثرت فراقها وهدمت نظام الأسرة بيدك والتبعة عليك ، وأساس الأساءة منك وإليك . ولو كنت حكيما لأخضعتها لأمرك بعطفك عليها وحنانك لها وعدم إيصال الأذى إليها .

وقد تعتذر بأن طباعها حادة ، وأنك ضقت بها ذرعا ولم توفق إلى مرضاتها ، فكانت أمامك شيطانا رجيما . ولهذا مهما أوتيت من فطنة فلن يمتنع تمردها ، ولن تسكن ثائرة نفسها . وقد تكون على حق فى دعواك ، ولكنك جلبت الشر على نفسك لأنك لم تحسن الاختيار . وجدير بك أن تنتقى لنفسك من حسن أدبها وسما خلقها ، وفاقت غيرها فى أنفس الغرر وأرقى السمات .

ومن الناس من يتناسى كل شىء عنها إلا مالها . فهو لا يبحث عن مثقفة ،

ولا يسعى للاقتران بمهذبة ، وإنما يهتم بما أحرزته من أبيض براق وأصفر رنان ، وما امتلكته من عقار وضياع ، فلما وجدته لا يدانيها فى ثروتها ، وأنه كل عليها ، أسقطته من عينها ولم تقم له وزنا . وإذا لم يكن الرجل قواما عليها أذلته واحتقرته وليس له أن يجابهها لأنه يذكر دائما أنها تطعمه وتسقيه ، ولأنه تواكل عليها وطلب الراحة بوساطتها .

وكم هى قاسية إذا تحكمت أو اغترت أو اعتزت بمالها ، أو نشأت فى بيئة فاسدة فأنها فى مثل هذه الظروف لا تطاق ، ولقد سمعنا أكثر من مرة أن بعضهن فصمن عرى الروابط العائلية لرغبة بدت منهن فى غير ما قسم لهن أول مرة .

وقد تكون هناك عائلات رضى الله عنها فخيم عليها السلام والوئام ، مع أن نساءها من ذوات اليسار . وهذا مسلم به طبعا ولكن غاب عنك أن هذه أمثلة قليلة والقليل لا حكم له . وربما كان الباعث على ذلك حسن التربية وجمال النشأة الأولى ، وقيام الآباء من قبل بواجبهم بأدق معانى الكلمة . وأنا لا أقاوم الغنى بل أتمناه للجميع ، ولكنى لا أريده قاعدة أساسية للروابط الزوجية .

وهى لا ترحمك إذا رأت منك إعراضا عنها وانصرافا إلى الآثام ، وضياع الدخل فيما لا يعود عليها وعلى أبنائها بالفائدة . وهى لا تنسى أنه عملا بالوثيقة الشرعية التى جمعت بينكما أنك لها وحدها دون سواها ، وأن الواجب العائلى والوطنى يحتم عليكما إخراج أبناء تعتز الفضيلة بهم ، فاذا رأتك مقصرا فى أمر مستقبلهم أو شاهدتهم يتضورون جوعا ، أو تلمستك فى المنزل إذا جن الليل فلم تجدك ، أحفظها كل هذا عليك ، وأخرجها عن طورها الطبيعى فنالك منها ما أنت عالم به .

وفى مواطن أخرى يغاضبها الرجل بالزواج من غيرها مع وجودها معه . وآثار ذلك واضحة لا تحتاج إلى تمحيص وتفنيد . بل هى تذكر الانتقام وتسعى له لأن ذمامها خفر وانتابها حظ نكد وبخت عاثر عن طريقه ، مع أنها خصته فى ماضيها بوفائها وإخلاصها .

وقد تكون أماً رؤوماً لم تجد من أنجالها عطفا ، وقد أعدتهم للملمات . فلما صاروا فى بسطة من العيش وجاء دورهم فى الأنفاق لم يعولوها وتركوها تبيت على الطوى . وعندئذ تقلب لهم ظهر المجن على مضض ، وليس عليها لوم ولا تثريب .

هذا قليل من كثير من أسباب تمردها وانشقاقها ، وخروجها عن حيز السكون والاعتدال . ولو أنصفناها وعدلنا عن هـذه المنغصات لانتظمت واستقامت ، وعكفت على مرضاتنا ، وحافظت على ودنا والولاء لنا .

الوردة الذابلة

رأيتها ملقاة فى عرض الطريق يدوس عليها الغادون والسارون دون أن يتنبهوا لها ، أو يعيروها أدنى التفاتة . وقد تحطمت أجزاؤها وعلقت بها الأوحال ، حتى أصبحت كأنها جزء من أديم الأرض لاميزة لها ولا رونق ولا شكل .

ورأيتها فى يد الحسناء تقذف بها لتبعدها عنها ، أو لتتخلص منها لأنها لم تعد تصلح لشىء ، إذ فقدت رواءها البديع ومنظرها الجذاب . وهكذا لا يمكننا الإبقاء على ما لا فائدة فيه وما لا لزوم له . وشاهدتها على قبور الموتى وقد نضب معينها وجف ماؤها ، وكأنى بها قد وجدت فى موضع يتناسب مع ما آلت إليه . فبعد أن كانت عنوان الحياة صارت رمزا للمات ، واختارت أن تكون شارة الفناء بعد أن كانت وسام العروس وتاج الشباب .

ومررت بالبستانى يوما فألفيته يقطفها من بين مثيلاتها لأنها ذبلت وشوهت جمال أزهاره ، ثم ألقاها كما يلقى الصبى النواة التى لاتغنيه فتيلا .

وأتيت دار قوم خلا وطابها من الهموم فأقيمت فيها المهرجانات لفنى فى ليلة بنائه على ربة صون . وإنى بهم يزينون باب هذه الدار بالورود والرياحين ، إذ نظرت طفلا يضع أنامله على إحداها فضربه رب الدار بلا شفقة ولا رحمة . ولما أصبح الصباح وجدتهم يرمون ذلك الورد وشبهه

للأحداث عن طيب خاطر . فعجبت لذلك الأمر ، ولكن لاعجب إذ دب الذبول فى أصولها وفروعهـــا ، فصاروا فى غنى عنها فعبث بها الصبية كيف شاءوا .

ما كنت لأكيل القول جزافا أيتها الوردة المحزونة بلا ثمرة . وكان أجدر بى أن أرثيك أو أحزن على الأقل لما ألم بك وانتابك ، أو أدرأ عنك ما أصابك ولو كنت واحدة فقط لعن لى ذلك ، أما وأنت ملك الشرق والغرب فأنى يكون لى ما أردت ، وأنت حق مشاع بين جميع البشر . وليس فى مقدور أحد أن يوقف تيار القدر . غير أن رأيتك عبرة حسنة فآثرتك على غيرك وفضلتك على سواك لأنك عظة بينة لمن لا يودون أن يكونوا موطىء القدم وموضع إهانة ومصدر الشقاء .

شبيهك بيننا أيتها الوردة ، فتاة كانت من النضارة ورونق الشباب مايفسح للشاعر مجالا للوصف والأبداع ، فى شرح ما يستملح من جمال فتان ، إذا مرت فى جنح الظلام تمزقت أستاره من بهجة أنوارها ، كوردة يانعة وسط باقة مجموعة لساعتها ، يخشى الناس أن يتطلعوا إليها فيصيبهم ما أصاب قيس ليلى وصاحب عفراء ، يتحدثون بما لها من خلق كريم . وإن هى إلا فترة تناست فيها مركزها ، وعميت عن قيمتها ، فانتهت روايتها بالويل والثبور .

ليتك أيتها الوردة تأخذين على كل فتاة عهدا أن لا تضمك إلى صدرها وقت أن تكونى يانعة إلا إذا تزينت بالفضيلة ، كما يتزين صدر القائد العظيم بالنياشين ، وأن لا تضعك على رأسها إلا إذا رفعته عاليا طول حياتها لشرف صانته وعفاف حافظت عليه .

حدثى كلا منهن على حدة عن ذبولك واحتقار الناس لك ، وإلقائهم

إياك من حالق ، وأنهن يلحقن بك إذا تهاون فى كرامتهن ، أو استسلمن لغواية أو سلكن مسالك الشيطان . واشرحى لهن ما أصاب نظيراتهن فى الماضى لأنهن لم يدركن ما ينبغى نحو مستقبلهن ، أو آثرن الطرق المعوجة عن الطرق السليمة .

وقولى لهن كم من الفتيات ذوى غصنهن الرطيب أسوة بك ، لأنهن ملن مع الهوى ولم يكترثن بنصح وإرشاد ، وبلغيهن أنك كنت عربون المودة بين قلبين يظهران الولاء وكان الأجدر أن يتنافرا ولكن لم يبق لهذا الولاء أثر .

ليت شعرى إنما ذبلت الوردة كرهاً . ولو كان لها لسان ينطق لما رغبت فى الذبول بأى حال . ومن الحماقة طبعا أن تسعى الفتاة للأضرار بنفسها ، وقد علمت أن الشرف خير حلية ، والعفاف أفضل تاج ، والفضيلة أسمى صاحب وأوفى صديق .

الساعة الرهيبة

هو من ذوى اليسار لم تؤلمه فاقة ولم يطرق البؤس والإملاق باب داره، ولم تضطره الظروف يوما الى الكدح والسعي وراء الرزق عن عرق الجبين، لأن أسلافه خلفوا له ضمن ما تركوا مالا وفيرا وضياعا واسعة، ومنازل يؤمها الرواد من المؤجرين فتدر عليه الخير العميم.

أنفق الشباب فى إغضاب الله فما من معصية إلا وله بها اتصال وثيق. ومضى شيخوخته فى أكل مال اليتامى وإيصال الأذى بالناس. وبالإيجاز ليس له خلة شريفة يحمد عليها ولا عمل جميل ينسب اليه، إذ كثر استكباره، وزاد استهتاره، وضج عارفوه من آثامه ومل المتصلون به من أوزاره.

وحسب الدنيا دار إقامة خالدة، وما درى أن الانسان فيها ظل زائل لابد أن ينفض عنه غبارها يوما ما، ما دام الفلك يدور دورته مرة بعد أخرى. فلم يتدرع لمعاده بما ينفعه فخسر الأولى والأخرى وباء بغضب من الرحمن شـــديد.

نزل به المرض بعد أن نيف على الثمانين، وما زال به يجاهده ويجالده حتى سرى فى معظم أعضائه وأثر تأثيرا سيئا فى أحشائه وأمعائه، وحرم عليه الأطباء تناول ما لذ وطاب، ووقفوا بينه وبين ميوله. ولم يذق إلا الدواء المرير، وإذا جن الليل عيل صبره من أنين مزعج وألم ممض وعذاب لانهاية له.

وكلما مضى عليه يوم ازدادت حالته سوءا فلا شفاء يرجى له ، ولا عودة إلى عافية بتاتا . وإذا سرى الداء ووصل إلى نهايته تعذر البرء إلا إذا شاء ربك .

وأتت الساعة الرهيبة وأحس بدنو الأجل ، وأنه سيلحق بالغابرين الأولين بعد دقائق معدودة ، فاستعرض ماضيه وما فيه من شرور ، وتخيل المنكرات التى ارتكبها ، والاساءات التى نكب بها فريقا من الناس فى إبان جبروته وبطشه ، فتمنى لو أن حياته تطول قليلا ليرد الحقوق إلى ذويها ، وليكفر عما جنت يداه · وهكذا الأنسان فى غفلة لا يوقظه إلا اقتراب المنية ولكن حكم المولى جلت قدرته فى لوح مقاديره أن يكون فى عداد الموتى بعد انقضاء تلك الساعة ، وما نفعته العقاقير ولا شفعت له تضرعاته التى لجأ إليها بعد معصية تلوها معصية .

وفى اليوم التالى أهالوا عليه التراب شأن كل من أنشبت فيه المنية أظفارها ،واقتسم أبناؤه ما ترك . وكأنه لم يوجد من قبل ، ولم يذكر الناس عنه إلا تاريخا مزريا لا أثر لجلائل الأعمال فيه .

تلك حياة تجد لها نظائر كثيرة بين أغنيائنا شيوخا وشبانا ، والأوائل يجمعون التراث بطرق غير مشروعة ، فمن ربا فاحش إلى عدم رد الأمانات الى ذويها . وإذا نزل بهم الحمام تركوه للواحق فبعثروه على موائد الخنا والفسوق ، وتركوا كل شيء الا نزغات الشيطان ، وفسدت نياتهم وساءت أخلاقهم ، فأما ضياع العقار والدار ، واما وفود مرض لا إبلال منه ولاشفاء .

ليت شعرى ماذا استفاد صاحبنا من جشعه ، وماذا بنى من صروح المجد ، وما الذى أدركه من حطام الدنيا اللهم لاشيء سوى ذكرى مصحوبة باللعنات ، لأن الأساءة التى وجهها إلى من يمت اليهم بالصلة ومن لا يمت ، جعلتهم عند كل مناسبة يذكر فيها اسمه يشفعون القول بذمه ، ويضمون إلى

سلسلة إجرامه ماتنفر منه النفوس وما تنبو عن ذكره الأقلام .

وقمين بشرف المصرى أن يكون جاداً فى عمله ، ومصدراً للخير لكل أتباعه وعارفيه ، ومساهما فى جلائل الأعمال بكل ماأوتى من قوة ، وواضعا حجراً فى أساس النهضة القومية وقائما بما كلف به بمنتهى الدقة والأمانة ، لنضمن للشعب سؤدداً وسعادة ، ولنستحق أن ننتسب لتلك الأمة التى أظهرت فجر المدنية فى الحقب الخالية .

ولقد سردت لكم سيرة هذا الغنى الراحل لأبرهن لكم بطريقة عملية أن منا من لايكترث إلا بمصلحته الذاتية ، وأن كثيرا من أغنيائنا من ينفقون أموالهم فى سبل غير مجدية وطرق دنيئة ، ولا يستخدمون ثروتهم فى أعمال اقتصادية نافعة ، وإذا وكل إلى أحدهم الاشراف على مال أسرته أو ضياع إخوته أو عقار أقاربه ، كان له الغنم وعلى الآخرين الغرم أو كان له كل شىء إلا النزر اليسير .

وربما كان للفقير العذر إذا ركب متن الشطط وإن كنا لا نقر هذا ، ولكن لاعذر لغنى يظلم اليتامى و يأكل مال الناس لانه فى بسطة من العيش . وما الداعى إلى هذا كله والخيانة ليست من المبادىء الشريفة ، ونصت الشرائع السماوية والوضعية على فظاعتها وخطورة عواقبها .

وأعتقد أن الشبان فى هذا العهد الجديد يجتازون طورا يخالف الطور الذى اجتازه زملاؤهم فى العصور التى تقدمتنا إذ عرفوا ما ينبغى عليهم نحو الحركات الاقتصادية والقومية ، ووجدنا فيهم نزعة إلى الرقى المادى والأدبى ونقرأ لهم نداءات حارة لتمجيد كل ما هو مصرى . ونود منهم مقاطعة ماله تأثير على الأخلاق الفاضلة حتى يمكن أن يوجهوا جهودهم بالمعنى الصحيح الى رفعة بلادهم . ونرجو من شيوخنا عفا الله عنهم أن يضربوا لأبنائهم

وأحفادهم مثلا أعلى للحياة الطيبة ، التى تتمشى مع المروءة والواجب .

ولا نريد أن يكون فيكم فرد كالذى بدأنا المقال بعرض قصته ، وشرح مايتعلق بمصرعه وما حدث له ، إذ نود للجميع سعادة واطمئنانا ، وأن ندخل الدنيا أحرارا ونخرج منها كراما . ولكل منا مبدأ ونهاية ، فأذا ما اقتربت الساعة الرهيبة استقبلناها بهدوء ، لأننا ملأنا صفحة الماضى بما يضمن القدر المحمود وخلود المجد فى سجل التاريخ . وإلا كنا على أمتنا حاطبين ، ولها خاذلين وتركنا صفحة سوداء وقانا الله وإياكم شرها ونتائجها . وذكر فأن الذكرى تنفع المؤمنين .

ضحية الاخلاص

١

(عائشة) عذراء ما خلعت عذار حياتها ، لم تبلغ الخامسة عشرة من عمرها بعد ، عنى بها والدها فرباها أحسن تربية ، وقد وهبها الله جمالا تتيه فى وصفه العقول بقدر ما زانها بخلق حسن وآداب جمة قل أن يوجد نظيرها فى مثيلاتها .

وما كان أبوها من السراة ولا من أصحاب الرتب العالية ، بل كان أجير يومه اتخذ النجارة مهنة ، وسهر على راحتها ، وعاش بجانبها مغتبطا بها ، باذلا جهده فى القيام بشئونها على جناح السرعة ، لأن والدتها فارقت حلو العيش ومره وهى فى السابعة من سنى حياتها ، ومع أنه لا يضرب فى الغنى بسهم ، فقد عاشت ابنته الوحيدة فى رخاء بال لا تهتم إلا بارشاداته ، ولا تعبأ بشىء إلا بنصائحه الغالية التى يقدمها لها بين آونة وأخرى .

وعلى مقربة من المنزل الذى كانت تقطنه ، كان يسكن شاب من الذين ورثوا تراث آبائهم فضيعوه بين الكاس والطاس ، ووصلت الى أيديهم ثروة أسلافهم فنثروها على الماجنات وفاسدات القـــلوب تارة وموائد الميسر تارة أخرى .

رآها فعلقت بذهنه ، ولم تسكن سويداء قلبه ، شأن غيره من الذين

لا يكترثون بمستقبل الأبكار ، ولا يهتمون بأمر الفتيات كثيرا ، وسواء لديهم أسعدن أم شقين، بل فى قلوبهم مرض فيفسدون عليهن نعمة السعادة ، وعلى ذلك عول على غوايتها والتغرير بها معتمدا على أمواله وضياعه ، متخذا فقرها سلماً يصعد عليه لقضاء مآربه السافلة .

ومما هو جدير بالذكر أن الفتاة نشأت تقدس العفاف ، وترى أن الشرف خير حلية للجنس اللطيف وأثمن جوهرة يجب الاحتفاظ بها ، لأنها إن فقدت فالعذاب الأليم وشقاء الجحيم .

وقد مر على ذلك الشاب حوالى عام وهو لا يستطيع أن يخاطبها ، وظل يرقب الفرص بين آن وآن لعله يحظى بالمثول بين يديها ، ليصوغ لها من ألفاظ الحب الكاذب ما شاء وشاء له هواه ، ولكن بلا جدوى ، وقد وضعت بينه وبين قلبها حجاباً لا يمكن تمزيقه بأى حال ، إذ ثبت لديها خبث نيته ، وسوء قصده .

ولما أعيته الحيل عمد الى الكتابة فأرسل اليها الرسائل يتلو بعضها بعضا متضمنة آراءه ، وما يطويه تحت جوانحه من هيام موهوم ، وهى فى شغل عنه ، ولم تعره أدنى التفاتة ، وغاية الأمر أنها أصبحت فى حيرة من أمره ، وخشيت العواقب الوخيمة التى تنجم عن تماديه فى غيه ، فأرادت أن تنبىء والدها بما جد منه حتى يوقفه عند حده ، غير أن الخجل منعها من مفاتحته فى هذا الشأن ، واكتفت بتركه فى زوايا النسيان وتمزيق خطاباته ، وعدم الاكتراث بتمنياته ووعوده .

وغاب عن ذلك الفتى أن القلوب الحساسة تشعر بميل القلوب ، فلا الأغراق فى الادعاء بمفيد إذا لم يكن ذلك الوجد صادرا عن عاطفة حقيقية ، ولا التظاهر بالغرام بنافع لدى اللواتى لا تغرهن المظاهر ولا يطربهن ناعب

ممن ساءت سمعتهم ، وليس لشخص فى ودهن نصيب إذا عرف بالدناءة والخسة ، وبدا منه ما يشعر بنقص فى الأخلاق والتربية .

وعندما سدت فى وجهه السبل أفضى بدخيلة نفسه إلى امرأة بلغت من العمر أرذله ، معروفة بسوء سلوكها ، فطمأنت منه البال والخاطر واسترسلت فى إقناعه بأنها لابد ناجحة فى مهمتها ، وضربت له الأمثال بما تم على يديها وفشت له أسرار من وقعن فى حبائلها . والحقيقة أنها من اللائى أخذن عهد الضلال على أبليس . ولكن أنى لمن على شاكلتها أن تؤثر على وجدان حسناء الموت فى نظرها أهون من أن تزل بها القدم .

وبدأت تلك المرأة فى تمثيل دورها ، وترددت عليها كثيرا وصاغت لها ما استطاعت من أساليب الخداع والوعود الباطلة . وطرقت كل باب واستعملت كل حيلة لتملك قيادها ، ولم تصادف نجاحاً مطلقاً ، لأن الفتاة فهمت أغراضها لأول وهلة ، وعلمت ما تبديه وما تخفيه من كلماتها ، ورأت أنه من الحكمة أن لا تطردها من دارها إلا اذا تبين لها يقيناً ما تبغيه . وفى النهاية بعد زيارات كثر عددها قابلت حكاياتها الطويلة وما ألقته بين يديها بالسخرية والاستهزاء ، ثم قالت لتلك العجوز : لقد استاءت من أقوالك كثيرا ، وإنى لأشعر بخطر يحدق بى من جراء زيارتك إيانا ، ولولا أن من شيمتنا إكرام الضيف لما سمحت لك فى بادىء الأمر بدخول دارنا ، أما وقد تكشفت لى نواياك واضحة جلية ، فأرجوك أن تعدلى عن زيارتى فأن القبض على نجوم السماء ، والنقش على صفحات الماء ، أسهل عليك مما تدعيننى إليه . وبدلا من التضليل ببنات حواء ، اعملى عملا ينفعك فى معادك ، وقد صار بينك وبين القبر قاب قوسين أو أدنى .

ياهذه ماذا تصنعين يوم لا ينفع الأخ أخاه ولا يسأل كل شخص إلا

عن عمله . وربما كان لك العذر لو كنت فى مبدأ الشباب ، ولكنك قد بلغت من الكبر عتيا فكفرى عن سيئاتك وتوبى الى الله توبة نصوحا .

فسمعت قولها وخرجت من عندها تجر أذيال الخيبة إلا أنها أفهمته عكس ما لا قت وأوهمته أنها نجحت فى مهمتها لتحصل منه على النقود وهي علة خبثها وسفالتها .

* * *

وخرج والد عائشة فى الصباح كعادته لمزاولة عمله وتركها فى المنزل وحيدة وبعد ذلك ببضع دقائق طرق الشاب باب دارها مؤملا أن يحظى بمؤانستها ، فقامت لتفتح له ظانة أن الطارق إحدى صديقاتها أتت لزيارتها ، فلما رأته تولاها شيء من الخجل إلا أن ذلك الزائر السمج دخل وأغلق الباب خلفه ، فتجلدت وقالت له

— بأية سنة دخلت هذا المكان ، وأنا على ما ترى وحيدة فيه ، وأبى ليس هنا .

— دفعنى إلى ذلك حبى إياك .

— أرجوك يا هذا أن تخرج على عجل فأنه ليس من الشهامة أن تذكر أمامى مثل هذه الجملة .

— أنت تعرفيننى طبعا لأنى من جيرانك ، وتعلمين أنى من ذوى اليسار فاذا ما سمعت منك كلمة عطف جعلت ما ملكته يمينى تحت تصرفك .

— لله منكم أيها الشبان ، كم لكم من عبارات خلابة تستهوون بها العذارى ، وتوقعون بمقتضاها الفتيات فى شراككم . ما لنا وثروتك فضياعك لا تساوى ذرة من تاج العفاف الذى اتخذته لنفسى شعارا . عجبا ! أخلقتم للقضاء على مستقبلنا ؟ أم هل وجدتم حجر عثرة في سبيلنا ؟ إصرفوا

ميولكم فيما يعود على وطنكم بالسؤدد والرفعة ، واقشعوا عن ألبابكم سحائب الرذيلة وحبائل الشيطان .

— لله ما أعذب لفظك ، وما أجمل قولك ! ولكن ما رأيك فأنى أكاد أجن من فرط وجدى بك ؟

— من الجهالة أن تميل إلى من لا يميل إليك ، ومن الغباوة أن تكرر قولا لا فائدة منه .

— لا تحرقى فؤادى ويكفيه ما لاقى من التعذيب فى سبيلك . ارحمينى . ألست من بنى الانسان ؟ انظرى فقد هزل جسمى ، وخارت قواى من السهر المتواصل فى التفكير فيك

— ترهات لا يمكن التأثير بها علينا . وإن أصررت على عنادك صرخت بأعلى صوتى ، وطلبت النجدة من المساكن المجاورة ، وأنت لا ترضى بذلك طبعا ، وألتمس منك إن كان عندك ذرة من النخوة أن تخرج فى الحال فأنك تسيئنى بهذا التعدى المخالف للأنسانية

فيئس من استمالتها إليه وأراد أن يقبلها فدرأته عنها ، واستماتت فى الحصول على قبلة منها فاستمدت من ضعفها قوة ، وهددته بضربه بفأس كان ملقى على الأرض بجوارها إن لم يغادر الدار فى الحال ، ثم دفعته الى ناحية الباب وجاهدت حتى أخرجته حقيرا ذليلا .

وبعد ذلك جلست تبكى لما أصابها من الاضطراب . وإنها لفى غمها إذ سمعت قرعا على باب منزلها ، ولما تبين لها أن القارع سيدة سمحت لها بالدخول .

وكانت تلك السيدة على غاية من الهياج لأنها زوجة لذلك المرء الذى لم يراع كرامة الفتاة ، وقد ظنت هذه السيدة أن له اتصالا بها وأن هناك

علاقات ودية بينهما ، إذ رأته من شرفة دارها وهو يجتاز عتبة منزل والد عائشة ، وراقبته إلى أن غادره فوفدت لتهديدها بقولها :

— جميل جدا ! أتتظاهرين أمامنا بالصلاح والتقوى والحال أنك على النقيض من ذلك ؟

— ولم هذا ؟

عجبا ! أتنكرين أن رجلا كان عندك منذ ربع ساعة ؟ أفلا تعلمين أنه زوجى ؟

— صدقينى ياسيدتى أنه هو الذى خرق حرمة الآداب ، وقد خرج من عندى مطروداً وسأبلغ والدى أمره .

— تمويه ومحض اختلاق.

— أقسم لك بالله العظيم وبالوطن المفدى أنى بريئة مما تتهميننى به الآن .

— لاأصدق ، واعتقدى أن انتقامى منك سيكون رهيبا .

فبكت عائشة لأنها طاهرة الذيل ، ولم تفكر يوما ما فى نقيصة ، وبعد أخذ ورد أشفقت المرأة عليها واتضح لها أنها ظلمتها لأنها تعلم علم اليقين ما آل إليه أمر زوجها ، وأنه لايصطحب الراقين فى سيرهم ، ويضيع هزيعا من الليل فى اقتراف ماحرم الله ، فاعتذرت لها عما فرط منها ، ثم ودعتها وانصرفت ، وفى نيتها إيصال الأذى اليها إن رأته بجوارها مرة أخرى .

— ٢ —

ذهبت زوجة الشاب إلى منزلها وتكاد نار الحزن تحرقها ، ولم تستطع المكث فى ذلك البيت ، ولم تطق معاشرة زوج يتطلع إلى سواها ، وفضلت هجره عن معاشرته ، نظرا لاهماله حقوق الزوجية وخيانته لها ، وانتقلت إلى دار أبيها ثم قصت عليه ما القارىء مطلع عليه ، إنما بطريقة مشوهة طبقا

لناموس الغيرة ، فاستشاط الرجل غيظا وقال لها :

— إنى ليحزننى أن وصلت ابنة ذلك النجار المسكين الى هذه الدرجة من الانحطاط ، والرجل طول حياته كان مثال الشرف والاستقامة ، بل يعد كقدوة حسنة فى جميع أطواره .

— لا تشك فى أية كلمة من أقوالى ، وإن كنت فى ريب فاسأل أهل الجهة التى نحن فيها .

— أنا واثق من كلامك ، ولكن ماذا أصنع مع زوجك وما الذى ينبغى عمله لأبلاغ والدها قصتها حتى يأخذ الحيطة لنفسه .

— أما زوجى فلا أريد أن أكون معه بعد هذا أبدا ، وأما والد عائشة فيمكنك أن تطلعه على كل شىء لاسيما وأنه من أصدقائك .

— هذا واجب غير أنى أخشى أن يحدث للرجل مرض فجائى عند سماعه لهذا الحادث المؤلم .

— وماذا عليك لو مات أو صعق مادمت تسعى فى أمر فيه صالحه ؟

— سأبذل جهدى فى عرض الأمر عليه . وأخذ عصاه يتوكأ عليها قاصدا مقابلة والد عائشة لينقل له ما خفى من أسرار ابنته ، وعند ماواجهه تبادل معه التحيات ، ولكنه لم يجد عنده قوة تمكنه من عرض المسألة عليه ، بل خاض معه فى حديث طويل متعلق بالزراعة تارة وبأحوال النجارة تارة أخرى . وبعد أن مكث طويلا ابتدأ فى التحدث فى الغرض الذى قدم من أجله فقال :

— أظن أن كريمتك قد كبرت وأصبحت صالحة للزواج .

— قد يكون ذلك ولكن لاينتهى أمر كهذا إلا بإذن الله .

— ألم يعرض عليك أحد أمرا خاصا بالزواج منها ؟

ـــ كثير من الناس ولـكن حالى لا تسمح لى بإتمام هذا العمل الآن .

ـــ ولم هذا التسويف مع أنه لابد من إتمام ذلك الشىء على كل حال ؟

ـــ قد يكون من الخطأ التوانى فى تنفيذ مثل هذا المشروع ، إلا أن معظم الذين خاطبونى لا يليقون للمصاهرة ، إما لأن أخلاقهم غير مرضية ، وإما أن يكون لهم زوجات أخرى وهكذا .

ـــ علمت يا أخى أنك تتركها منفردة وهذا لا يليق من عائلة الوجوه .

ـــ ربما كان اعتراضك يصيب كبد الحقيقة لولا أنى أميل الى عزلتهـا فان فى الاختلاط ما نسأل الله السلامة منه .

ـــ لا إنك تفهم النظرية معكوسة ، ومن كانت فى سنها تحتاج إلى مراقبة حركاتها وسكناتها .

ـــ أدب بنيك وهذب بناتك ودعهم وشأنهم ، وكن على يقين من أنهم إذا مروا باللغو مروا كراما

ـــ كأنك تخالفنى فى رأيى وعرضك معرض للسقوط .

ـــ ماذا تقول يارجل أمجنون أنت ؟

فأخذ يهول له فى مسألة ابنته ويزور له الكلام حتى دارت به الدنيـا دورة تكاد تفقده الصواب ثم تركه بعد أن أضرم فى فؤاده نارا لا ينطفىء شواظهـا .

ووقف أبو عائشة وقد أصابته قشعريرة ولم يدر ماذا يصنع ، إلا أنه أصبح كالبحر فى تلاطم أمواجه ، لا يقر له قرار ، أو كالأسد الضارى إذا فقد أشباله ، ثم دار بخلده ما لحقه من العار فخارت قواه وخر فى مكانه صعقا . فلما أفاق من غشيته رفع يديه إلى السماء وقال :

يارب قد حفظتنى من الفضيحة حتى بلغت هذا العمر فارحمنى برحمتك

الواسعة ، وانقلني من هذه الدنيا المملوءة بالشرور والآثام .

يارب قد أمضيت صحائف حياتى دون أن أعتدى على عرض أحد فلا تحملني مؤونة العار وليكن ماقالوا عاريا عن الصحة ، ثم سكت برهة وقال :

تراها خضعت لسلطان غدرهم - كلا - لاأظن ذلك - فأنى أعرف ابنتى راجحة العقل ، وماضيها محمود ، وحسن استقامتها لايختلف فيه اثنان .

وساورته الهموم ثم رجع إلى منزله للتحقق من ذلك النبأ المشؤوم - وفى أثناء عودته إذا رأى شخصا يتطلع اليه يطأطىء رأسه ، وإن شاهد امرءاً يبتسم ظنه يسخر منه . وظل كذلك إلى أن وصل إليها فرآها مكتئبة محزونة على غير عادتها فأيقن أن ما قيل له لا مراء فيه وإن اضطرابها واكتئابها ناشئان من افتضاح أمرها ، إلا أنها لم تمهله ينطق ببنت شفة حتى فاجأته بصوت عال تدل نبراته على صدق الطوية بقولها :

— أيها الوالد المحترم

إن لى شرفاً لايستطيع أحد أن يدافع عنه غيرك ، بل إذا امتهنت كرامتى فأن ذلك واقع على عاتقك دون سواك ، والويل لى ولك إن تهاونت فى أمرى أو تخاذلت عن نصرتى،فأن حادث اليوم حادث جلل لايحسن السكوت عليه.

فهدأت ثورة غضبه ، واستفسر منها عن حقيقة أمرها فأخبرته القصة على علاتها ، وأقنعته ببراءتها عما رموها به . فعاد إليه صوابه ، وفضل الرحيل من بلد أساءت إليه ، والاقامة على ضيم ومذلة لا يحتملهما أصحاب المبادىء السامية والعقول الراجحة . ودفعه إلى ذلك ضعفه وشيخوخته ، وحفظه على حسن سمعته . وفى الوقت ذاته كان الشاب وزوجته يدبران أساليب الانتقام منها كل على حدة ، هذا لما أصابه من خزى وتلك لأنها توهمتها حجر عثرة بينها وبين زوجها .

٣

لم ير الشاب طريقة يسيء بها إليها إلا اختلاق الأكاذيب عليها لدى خلطائه وجلسائه ، حتى ملأ الحى كلاماً عنها لا نصيب له من الصواب . وأصبح الناس لا يتحدثون إلا بشأنها ، وأما زوجته فأرادت أن تسيء إليها ، فاتفقت مع بعض من لا خلاق لهم على اتباع أية طريقة لأهانتها أو على الأقل السطو عليها ليلا لسلبها جزءاً من متاعها لأقلاق راحتها ، وتعكير صفوها ليفكر أبوها فى الرحيل من تلك المدينة إلى جهة أخرى . إذ سمعت من بعض قريباتها نقلا عن أزواجهن ، أن زوجها لا يزال مصراً على عناده فيما يختص بعائشة . ومن غريب الصدف أن سيدة تحب الفتاة التى نحن بصددها الآن محبة إخلاص ، سمعت تلك المرأة وهي تتحدث مع من اتفقت معهم ، واتصل إلى سمعها بعض ألفاظ قليلة فهمت منها تآمرهم عليها ، فهرولت إليها وأطلعتها على كل شيء وأفسدت على زوجة الشاب كل عمل .

ولما رأى والد عائشة خطورة الموقف أخذ ابنته معه يريد الانتقال بها الى بلد آخر ، يقيم به بعض ذوى قرباه . وقبل رحيله أبلغ أمر اللصوص إلى البوليس فدوهموا ليلا وهم متلبسون بجريمة السطو ، وحوكموا بالسجن على مقتضى التهمة الموجهة إليهم . وهكذا شأن كل امرىء يخرج عن جادة القانون ، أو يندفع فى حمأة الرذيلة ، ويعاون الغير على الأضرار بالناس . ومن حسن حظ المرأة أن المجرمين لم يجعلوا لها صفة ، ولم يلقوا على عاتقها تبعة أثناء التحقيق ، فلم يحدث لها ما كانت أهلا له من العقاب .

ولننتقل بالقارىء الكريم إلى التكلم عن رحلة عائشة ووالدها ، فأنهما سافرا على الوجه الذى بيناه آنفا . وأنهما لسائران فى طريقهما إذ أصاب الوالد دوار فنزلا عن مطيتيهما حتى ينجو مما أصابه . ومضى وقت طويل وهو على

حاله فقالت له ابنته :

ـ لقد قارب النهار الانتهاء ونحن فى طريق منعزل ، وقد انقطع السابلة من المرور .

ـ وماذا أصنع يا ابنتى وقد تملكنى ضعف شديد فلا أستطيع النهوض

ـ لقد سئم المكارى طول المكث معنا وقد أخذ أتانيه ومضى لحال سبيله فهل نبيت هنا ؟

ـ لا تحزنى وعند الله الفرج القريب

ـ أخشى أن يخرج علينا ذئب ، أو يصادفنا بعض قطاع الطرق فيلحقون بنا الأذى ، أو يسلبوننا ثمن الأمتعة التى كانت لنا من قبل

ـ نسأل الله السلامة

ـ قم واستند على ذراعى وامض بنا لعلنا نمر ببلد قريب نأوى اليه الليـــلة .

فما أن قام إلا وقد ظهر القمر فى كبد السماء ، وسطع نوره على أديم الغبراء ، ومشى الهوينى وهى بجواره . وبعد اللتى واللتيا سمعا نباح كلاب على مقربة منهما ، فرد إليهما روعهما لعلمهما أنهما صارا فى حيز بلدة أو قرية ، ولكن الرجل خارت قواه وأمسى عاجزاً عن أن يخطو خطوة واحدة ، وسقط على الأرض ، فبكت الفتاة لشدة مالاقت من العذاب ، وخشيت أن يحدث لأبيها ما لا ترضاه وليس لها بعد خالقها عائل سواه ، وقالت له والدمع ينهمل من مآقيها انهمال المطر :

ـ ماذا أصابك يا أبى ؟

ـ دعينى يا ابنتى فى همى وغمى ، فأنى لأشعر بدنو أجلى ، وأن الذى يحزننى أن ليس أمامى شخص أوصيه بك

— لا تشغل بالك فأنت بخير

— وكيف ذلك يا ابنتي وحالتي ظاهرة لا تخفى على ذي عينين .

فتضرعت إلى الباريء جل وعلا أن يمنحه من لدنه قوة ، واستأذنت منه أن تتركه في مكانه لتبحث عن رجل يأويان عنده في جهة قريبة ، على شرط أن تعود بعد زمن قصير جداً ، فأذن لها ولم تسر أكثر من مائة متر حتى رأت أمامها ذئبا خرج من بين الحقول ، فتولاها الرعب والفزع ، ورغبت في العودة ، فقطع السبيل عليها ، فجمد الدم في عروقها ، ثم تقدمت الى الأمام فهب من مكانه حتى صار على مقربة منها من الناحية الأخرى ، فوقفت في مقرها وأسلمت مقاليد أمرها إلى القضاء والقدر ، فطاف حولها وهي صامتة ، ثم قفز ومر من فوق رأسها فاختبلت . وبينما هو يهجم عليها للفتك بها شاهد كلبين يعدوان نحوه من حقل مجاور فولى الأدبار وهما في أثره . وتذكرت والدها وخافت أن يصيبه ضر فيممت صوبه . وأخذ الرجل دهشة اليأس حين أبصر الذئب والكلبين وراءه ، وأيقن أن ابنته قد انقضى أجلها ، وماتت قتيلة بواسطة هذا الذئب وحاول النهوض عبثا . وبيناهو في غمه وهمه جاءته ابنته وهي تنتفض انتفاض العصفور المبلل بالماء فحمد الله عند رؤيته إياها . وشرحت له مالاقت وما زالت تلاطفه حتى قام وسار معها ثانية . وانطلقا حتى وصلا قرية تكاد منازلها تبلغ أصابع اليد عدا . فقال لها سأجلس ههنا بجوار هذه الساقية حتى ترى من نقيم عنده ، لأن بي نصبا زائدا . فانطلقت فوجدت أمامها ثلاثة منازل بجوار بعضها عند دخولها القرية ، فطرقت باب أحدها طويلا ولم يسمع أحد طرقها . والظاهر أنه خال من القطان . فانتهت الى الثاني وقرعته كسابقه ، وكان يسكن به أحد اللصوص الذين اعتادوا الأجرام ، وفي هذه الليله وجد معه فيه بعض من على شاكلته يجمعون أمرهم على سرقة أموال بعض الاغنياء

فلما سمعوا القرع خافوا عاقبة أمرهم ، وظنوا أن جاسوسا كشف سرهم ونقل أخبارهم إلى رجال الشحنة ، وقد أتوا لألقاء القبض عليهم ، فوقف رب الدار مذعورا ونظر من نافذته ثم قال

ـ من الطارق ؟

ـ فتاة غريبة ياسيدى ومعى أبى شيخ كبير أثر المرض فى جسمه ، ونريد مكانا نبيت فيه الليلة

ـ ليس منزلى فندقا فاذهبي من هنا

ـ لا تظن يا هذا أننا نطلب منك أمراً لا يطاق ، بل خذ أجرا حسبما تطلب فى مبيتنا إن سمحت

ـ ما أغباك وما أكثر قولك ! ولما أنت من الأغنياء فما الذى حملك على التلكؤ هكذا فى ساعة متأخرة من الليل ؟

فلم تحر جوابا ومضت الى المنزل الثالث . أما هو فقد أغلق النافذة وراقب حركاتها وسكناتها عن كثب ، متظاهرا بأنه لم يحفل بها .

وطرقت باب الدار الثالثة وكان يسكنها شاب سليل عائلة عريقة فى المجد فبمجرد أن وصل إلى سمعه الطرق هرول مسرعا إلى الباب وفتحه ، واستفسر منها عن حاجتها فعلم منها بعض أمرها ثم قال لها

ـ تفضلى ياسيدتى على الرحب والسعة ، واعتقدى تمام الاعتقاد أنك حرة فى هذه الدار تتصرفين فيها كيف شئت .

ـ أشكرك ياسيدى على حسن صنيعك فلقد برهنت على كرم محتدك

ـ عفوا فلا شكر على واجب

ـ إسمح لى أن أدعو والدى

ـ وأين هو ؟

ـ إنه جالس عند الساقية التي في خلف القرية.

ـ أرجو أن تصحبيني حتى نصل إليه.

فذهبت معه فوجدا أباها على حالة سيئة جداً، فتأثر الفتى وحمله حتى أدخله داره وقال لهما:

لكما أن تقيما في هذا البيت كيف شئتما، وإني على أتم استعداد لتأدية ما تأمراني به، ثم هيأ لهما الطعام، واستأذن منهما كي يبيت في مكان آخر حفظا على كرامتها، ورغبة في عدم مضايقتها، وحبا في أن تكون أكثر حرية. وقال لها إذا تطلب الأمر استدعائي فأني موجود في هذه الدار (مشيراً الى منزل في ناحية أخرى) واسمي مصطفى. وألحت عليه بأن يظل معهما فقال إنه منزلي أيضا أعددته لمثل هذه الظروف، ومع ذلك فأني سأكون بين أيديكما في كل لحظة ومضى لشأنه، فقالت الفتاة لأبيها ما أكرم هذا الشاب وأجمل بأخلاقه! ولو قيس بذلك الشاب الذي ضايقني في البلد الآخر لوجدنا الفرق بينهما شاسعا جدا، فلقد رأيت من مصطفى أدبا جما وخلقا محموداً. فأومأ إليها والدها وقال لها ليست صفات الناس على حالة واحدة، فمنهم الصالح والطالح، ومنهم الطيب والخبيث، ومنهم العالم والجاهل وهكذا، ثم قطع حديثه فجأة لأن المرض ازداد عليه، وبات يئن أنينا شديداً، وجلست ابنته بجواره تنتظر قضاء الله فيه، مؤملة له الشفاء العاجل من دائه والأبلال من مرضه.

٤

كان مصطفى فى سابق أيامه تلميذا قطع مراحل التعليم الابتدائى، وأوشك أن يتمم الدراسة الثانوية لولا أن داهمه القضاء بوفاة والده على أثر داء عضال لم يمهله أكثر من ثلاثة أيام ، فترك المعاهد العلمية لعدم وجود من يقوم بنفقاته وإحجام أقاربه عن مساعدته ، ولم يستطع أن يضع يده على ما يستحقه من ضيعة أبيه إلا بعد ثلاثة أعوام ، لمشاغبة البعض له بادعاء ملكيتها ، الأمر الذى أداه الى رفع ظلامته إلى حماة القانون حتى جرى العدل مجراه وحكم لصالحه .

ولا تسل عما أصابه من محن الدهر ونوب الزمان ، فى المدة المحصورة بين وفاة أبيه وبين اليوم الذى استولى فيه على ميراثه الشرعى ، فقد أغلقت فى وجهه الأبواب حتى اضطر أن يشغل مركزا فى أحد الحوانيت التى تتجر فى أنواع الأقمشة براتب ضئيل جدا .

فلما من الله عليه بخيراته ، لم يعامل عشيرته بمثل عملهم ، غير أنه ألف الانفراد فى معيشته وسكناه ، ورجع إلى قريته لمباشرة حقوله وتعهدها بنفسه ، فانصلح حاله واستقامت موارد رزقه، وعقب ذلك وفدت عائشة ووالدها اليه وهو فى بسطة من العيش ، وكان ذلك اللص الذى يسكن بجواره يريد أن يمثل معه دورا فى سلبه أمواله وأملاكه

فصادفه فى الطريق مبدئيا وهنأه بفوزه على خصومه ، ثم زاره مرارا ، وتظاهر بالاخلاص المتناهى له ، وعرض عليه شرب الخمور فلم يقبل ودعاه الى المقامرة فأعرض عنه ونأى ، ونبذ مخادنته نبذ النواة ، لأنه جبل على الاستقامة ، ولا ينفع الانسان سواها فى السراء والضراء .

وكان اللص من زعماء العصابات الذين يتسترون تحت مظهر الغنى ، وله

حوادث جنائية كثيرة وقع فيها سواه تحت طائلة العقاب ، ولم يعلم كنه سره أحد بعد . وقد أخذ يفكر فى هذه المرة فى حمل مصطفى على كتابة صك يتنازل فيه عن كل شىء وصلت اليه يده باستعمال طرق التهديد والارهاب .

فجمع قرناءه فى داره فى نفس الليلة التى حدث لعائشة فيها ما حدث فى أثناء انتقالها مع والدها إلى تلك القرية ، وعند طرقها باب اللص كانوا مجتمعين لهذا الغرض، وراقبوها حتىدخلتبيت مصطفى فظنوابها الظنون ،واعتقدوا أنها مكيدة مدبرة ضدهم ، وقد قيل (كاد المريب بأن يقول خذونى) وتركوه هذه الليلة على أن يعودوا إلى العمل فى فرصة أخرى . واتفقوا فيما بينهم على أن يقفوا له بالمرصاد ،وحيثما وجدوهمنفرداً أوقعوا به ونالوابغيتهم قسرا عنه . وفى ظهر يوم من الأيام نادى عائشة أبوها وقد أصبح كالهيكل العظمى وطلب منها كوبا من الماء ،فنظرت فى أوعيتها فلم تجد أثرا لنقطة واحدة لأن السقاء انقطع عنها ثلاثة أيام على التوالى لمرض ألم به ، فحملت جرة لتملأها من ترعة قريبةتلبية لأمر أبيها الذى سرى المرض فى جسمه ، سريان النار فى العود ، واختلط بأحشائه اختلاط الماء بالصهباء ، وبينا هى سائرة إذ رأت مصطفى مكتوف اليد اليسرى مقيد القدمين ملقى على الأرض ، وبجواره شخص يعذبه تارة ويكرهه على التوقيع بإمضائه على ورقة فى يده تارة أخرى ، وبجواره رجل آخر يحمل محبرةوقلما ، فألقت جرتها على الأرض وعدت نحوه لانجاده ، ولا ينكر الجميل الا لئيم نبت منبت سوء . وقبل أن يروها ضربه أحد الرجلين وهو اللص المار ذكره بهراوته ضربة قاسية شجت رأسه ، يريد إخماد أنفاسه لعجزه عن إكراهه على التوقيع على صك يتنازل له فيه عما ملكه ، فلما قربت منهما حست التراب فى وجهيهما فعطلت حاسة بصريهما ، ثم جاءت من خلف اللص ومسكت ساقيه بجمع يديها وسحبتهما

بشدة فخر على الأرض كالبناء المشخمر . وأما زميله فقد لاذبالفرار ، وفكت مصطفى من عقاله . وفى أثناء ذلك غافلها اللص ولحق بزميله ، لأنه أصبح منفردا وهما اثنان ، وتوكأ الفتى على ذراعها حتى أوصلته الى داره ، وأرقدته بجوار أبيها . وعندما كانت غائبة عن المنزل جاء السقاء وملأ الأناء المعد لوضع الماء فيه فلما عادت قال لها أبوها :

ـ أين كنت ياابنتى فأن الظمأ كاد يقتلنى

ـ تفضل كوب الماء

ـ كيف هذا وقد طلبتها منذ أكثر من ساعة . فقص عليه الفتى قصته وشرب الرجل ثم قال :

ـ وكيف جاء السقاء إذن إلى هنا ؟ أما مر عليكما ؟

ـ كلا ـ إنه متعود أن يمر من الجهة الأخرى .

ـ وكيف يابنى يجرؤ ذلك اللص وزميله على ارتكاب جريمة فى وقت الظهر

ـ ذلك لأن الناس عندنا تعودوا الذهاب إلى الحقول فى الصباح والرجوع منها فى المساء ، وقلما وجد مار فى وسط النهار . وأما المسافرون فيمرون من المكان الذى يسير فيه السقاء ، لأن الأشجار مزروعة على جانبيه فتقلل من شدة الحرارة .

ـ ولماذا مررت أنت منه ؟

ـ مررت منه بدون قصد ، وما كنت أدرى أن خونة سيكمنون لى فيه

ـ وهل هذا اللص الغادر قوى حتى تغلب عليك على تلك الصورة

ـ لا ياسيدى فلو كانوا عشرة لما تمكنوا من الانتصار على لو نازلتهم وجها لوجه ، ولكن أخذانى على غرة وأنا سائر فى طريقى ، ولم أشعر إلا

وقواى معطلة من عامة الوجوه .

ـ وماذا كانا يقصدان منك ؟

ـ معهما ورقة يرغبان فى أن أوقع عليها باعتبار أنى تسلمت من أحدهما ثمن أرضى لأصبح فقيرا معدماً وليحل محلى فى امتلاكها

ـ وهل حظيا منك بوضع إمضائك على صكهما ؟

ـ وهل فقدت صوابى حتى أسكنهما من ذلك ؟ ومع أنهما هددانى بالإعدام ، فقد ظللت مصراً على الاباء ، ولو قطعانى إرباً إربا لما حصلا منى على ذلك . ولسانى يعجز عن شكر ابنتك إذ انتشلتنى من الهلاك ، فأبرقت أسارير الرجل ولم يدم ذلك طويلا حيث عاودته دورة المرض .

٥

عنيت عائشة بهما عناية تامة،وسهرت على راحتهما ،وأخذ الشاب يعافى تدريجياً ،ويئست من شفاء أبيها، ولاحظها مصطفى فى أبان معاشرته لها فسر من تقواها . وفكر فى أن تكون له ، واعتقد اعتقادا جازماً أن مثل هذه الزوجة هى الواجب البحث عنها ،ومن أراد السعادة بكامل معانيها فلينتخب زوجة صالحة .

وعرض أمره على والد عائشة فلم ينفر الرجل منه وأجابه إلى ما طلب قائلا له :

ـ يابنى أنى على أبواب الأبدية وما أسلمك فلذة كبدى فلتكن لها الوالد الرحيم والزوج المخلص ، وإن ابنتى أمانة عندك فعاملها بخلق حسن كما أعهد ذلك فى كرم سجاياك ، ولا تحسبن الزوجة سلعة تباع وتشترى فى سوق نافقة ، بل هى شريكة المرء فى حياته والأمينة على شرفه .

يابنى سأكون بين يدى ربى بعد حين إن لم يكن اليوم فغداً، ولا أهتم

لشيء في هذه الحياة إلا بأن أفارق ابنتي وهي مرتاحة البال مطمئنة الخاطر . وإني مغتبط بمصاهرتك ، وعلى كل حال فأنت غني عن نصائحي بما أشاهده من رجاحة عقلك وسمو وجدانك ، وأسأل الله أن يبارك لكما في أعمالكما ويوفقكما إلى مرضاته .

فسمع مصطفى أقواله بهدوء تام ثم قال له :

ـ كن مطمئنا أيها الوالد المحبوب،وسأبذل جهدي في استجلاب رضاها، والمحافظة على راحتها ، وأكبر ظني أن من نكد الدنيا ومن سوء حظ الشبان الأساءة إلى زوجاتهم ، فأن حل الأخلاص بين الزوجين محل النفور كان ذلك أكبر داع إلى ربط أواصر المحبة بينهما ، وأضمن لحفظ كيان العائلات.

واستأذن منه كي يخرج لمصلحة خاصة ويعود في الحال ، فسمح له بذلك .

وبعد خروجه طلب ابنته وقال لها :

ـ ما رأيك في أخلاق مصطفى ؟

ـ شاب مؤدب تدل صفاته على رقيه وشرف نفسه

ـ إنه طلب مني الزواج بك ، فما هي كلمتك في هذا الشأن ؟

فصمتت فردد القول عليها بكلماته الآتية :

ـ إن هذا الأمر حق من حقوقك،ولك وحدك حرية القبول أو الرفض وأن جهل الناس هذه الحقيقة . وغاية الأمر أن من واجبات الآباء عدم أرغام بناتهم على التزوج بمن لا يرغبنهم ، ورأيي الخاص في هذا الشاب أنه يصلح لمصاهرتنا .

فقالت بعد أن سكتت مدة ليست بقصيرة .

ـ الأمر أمرك ياأبي

ـ إذاً أنت راضية عن ذلك ، وقد لبيت طلبه على اعتبار مدحك له في

كثير من الأحايين ، وبما أنك مقبلة على حياة جديدة ،فلا بأس من أن أقول لك كلمتي الأخيرة :

أن من أقدس ما يجب على المرأة احترام زوجها ، والاحتفاظ بكرامته ، فلا تسيئي إليه أصلا ، ولا تعكري صفوه ولا تقاوميه فى سويعات غضبه ، واحتملي شدته بشيء من اللين والصبر ، فانه عند ما يثوب الى رشده يشعر بخطئه فيعتذرلك عما فرط منه .وحذار من إهانته، ومن دلائل التربية الطيبة معاشرة الزوج فى سرائه وضرائه معاشرة حسنة . وكونى عوناً له على الدهر لا عونا مع الدهر عليه ، واجلبي السرور إلى فؤاده ، ولا تكونى سببا فى شقائه . وأكبر أمنية عندى أن تمضى البقية الباقيـة من حياتك فى سرور دائم، وعسى الله أن يرزقك الخلف الصالح .

وقبل أن يتم حديثه جاء مصطفى ، وبعد أن استقر به الجلوس اتفق مع والد عائشة على النظام الواجب اتباعه فى مسألته . وأراد الفتى إرجاء ليـلة بنائه عليها ، إلى ما بعد شفاء أبيها . وشدد الوالد فى الاسراع قائلا لا نعلم متى ينتهى الأجل ولم يمض أسبوع حتى تم اقترانه بها .

وعلى الرغم من زواجها بشاب نبيل ، كانت دائمة الاكتئاب بالنسبة لوالدها ، ولطالما أخفت حزنها فى صدرها ،ولم يكن ذلك بخاف على زوجها .

وأحضر مصطفى لوالدها الأطباء من كل حدب وصوب بلا جدوى . وقرر الجميع أنه من المستحيل أن يبرأ منعلته ، وإن هى إلا عشية أو ضحاها حتى قضى الرجل نحبه ، ومات مأسوفا عليه . فبكت عليه عائشة بكاء مرا ، وصار مصطفى يخفف من لوعتها ويهون عليها خطبها وواراه التراب . وهكذا شأن كل إنسان مهما طالت إقامته أو قلت سنوات عمره .

وجرت العادة عند بعض الشرقيين زيارة المقابر فى أوقات مخصوصة

لا سيما إذا مات عند أحدهم شخص حديثا ، ولهذا انتهز اللصوص خلو منزل مصطفى عند تغيبه هو وحرمه لزيارة قبر أبيها ، ودخلوا الدار وسرقوا جميع النقود التي وجدوها وحلي عائشة وخرجوا دون أن يراهم أحد .

ومضت جملة أيام على هذه السرقة ، وفتحت عائشة صندوقها الخاص لتبحث عن بعض أوراق لزوجها فلم تجد الحلى ولا النقود ، فكادت تصعق وأخبرت بعلها بما جد ، فاستاء جداً ، وحصر التهمة لأول وهلة فى جاره وتذكر ما أصابه على يديه .

ووقف فجأة يريد الخروج فقالت له :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

ـ إلى ذلك اللص الخائن لآخذ أموالى منه

ـ بالله لاتفعل ياعزيزى فأنه من فئة لا خلاق لها ، ولا يبعد أن يكون عنده بعض إخوانه وأنت وحيد ، وأخشى أن تمتد أيديهم إليك بأذى

ـ أنهم لو كانوا كالنجوم عداً فلن ينالوا منى منـــالا ، ولا بد من خذلانهم جميعا .

ـ لا تعمل شيئا يخالف القانون وبلغ العدالة أمرك فهى تقتص لك

— ومن يصدق أن رجلا غنيا كهذا اللص تمتد يده إلى مثلى مع أن ثروتى لا تعادل عشر ثروته ؟

— عجبا ! أغنى هو ؟

— نعم وله أملاك لا يستهان بها .

— وكيف إذن يحترف بهذه المهنة الحقيرة التي تدل على السفالة والنذالة .

— النفوس الوضيعة تندفع فى حمأة الرذيلة ، وتنقاد لغواية الشيطان انقياد الأعمى ، وسيان فى هذا الصدد الغنى والفقير .

— دع هذا الرجل الشرير كفاك الله غدره ومكره ، فلم يسمع قولها وتركها وحيدة راغباً فى الخروج بسرعة فتعلقت بأهدابه لتمنعه وأصر على عناده فودت الخروج معه فلم يقبل مطلقا ، وحاولت إقناعه بالبقاء أو أن تستصحبه على الأقل فلم تنجح فى ذلك .

*
* *

وخرج توا فانتابتها الهموم والأحزان ، وقدرت لهذا العمل نتيجة غير مرضية ، وجالدت قلبها فى الانتظار حتى يعود فلم تجد لذلك سبيلا ، فغادرت دارها وتبعته تريد مساعدته إن اقتضى الحال ، أو تطمئن عليه إن كان هناك مالا يشعر بالأضرار به

وطافت حول القرية لتبحث عن الحارس لتحلمه بجلية الخبر ، فلم تعثر به ويظهر أنه كان فى ذلك الوقت قد ذهب لقضاء مهمة من مهامه ، فكاد قلبها ينخلع ووطدت العزم على دخول بيت اللص لنجدة مصطفى.

وقبل دخولها تجاذب اللصوص معه أطراف الحديث ، وتهوروا عليه فقابلهم بالشدة ، وتشاجر معهم ، وانتصر عليهم ، لأنه أوسعهم ضربا ولكما ، غير أنهم تكاثروا عليه وأجهدوا أنفسهم فى إسقاطه على الأرض وشدوا وثاقه وكمموا فمه ، وأرسلوا أحدهم يستطلع لهم الطريق ، فلما وجدوه خاليا نقلوه إلى منزل آخر فى مزرعة ذلك اللص .

وعند خروجهم أجهدت عائشة نفسها فى ألا يروها ، وتعقبت آثارهم لتعلم مقره الأخير ولتبحث عن طريقة لانقاذه من براثنهم .

ودارت حول البيت متفقدة أحواله لتعرفه تماما ، فرأته متين البناء لا يمكن دخوله إلا من بابه ، فلم يتسرب اليأس الى فؤادها ، وجلست بعيدا عنه تفكر فى إعداد خطة تتمكن بواسطتها من خلاصه .

وأرسل اللصوص بعضهم ليأتوا بها ، ويضعوها بجانبه ، فلم يجدوها فى المنزل فظنوا أنها عند أحد أقاربها فى مكان آخر فأهملوا شأنها حتى تعود .

وباتت على قارعة الطريق ليلة ما كان أقساها ، ولم تكترث بالبرد اللافح ولم تفكر إلا فى نجاته . وجلست على مقربة من غدير تفكر فى أمر زوجها وتبحث عن كيفية خلاصه . ومضى جزء عظيم من الليل وهى مسبوتة(١) لاتصل إلى فكرة صائبة .

وقبل مغادرتها لدارها كانت قد تزيت بزى القرويات حتى تضلل بهم إن قابلوها ، ولعلها توقعت أن سيحدث لمصطفى ما حدث له فخرجت على تلك الصورة .

وبعد منتصف الليل فتح اللصوص باب دارهم ،وخرج نحو سبعة منهم فما أن وقع بصرها عليهم إلا وألقت بنفسها فى الماء خشية أن يقتلوها إن كشفوا سرها أو علموا حقيقة أمرها .

ومن حسن حظها أنهم لم يلتبهوا لها ، إذ كان كل جسمها تقريبا تحت سطح الماء ماعدا رأسها الذى أسندته الى قطعة من الحجر قريبة من الشاطىء بحيث لايظهر مطلقا إلا إذا أمعن النظر .

وذهبوا إلى حيث لا نعلم ، ثم عقب ذلك تركت الغدير ، وهى فى حالة يرثى لها ، وغسلت رداءها ولبسته وهو مبلل ، ورقدت على أرض منزرعة إذ خارت قواها وظلت كذلك حتى بزوغ النهار .

وفى صبيحة اليوم التالى رأت أن تتخذ الشحاذة مهنة لكى تتمكن من الوقوف آونة أمام بيت اللصوص دون أن يرتابوا فى أمرها ، ولكى تتمكن

---

(١) متحيرة

أيضا من تمييز سحنهم ومعرفة أشكالهم ليصل إلى ذهنها بعض معلومات عنهم تنفعها وقت تأدية الشهادة أمام رجال القضاء ان اقتضى الحال . واتبعت هذه الطريقة يومين كاملين وفى اليوم الثالث رآها أحدهم فارتاب فى أمرها وغاب عنه أنها من الرقباء الذين وقفوا لهم بالمرصاد . واستحسن ذاتها وسر من ملامحها ، وعلى هذا عرض عليها أن تكون فى خدمته فقبلت عن طيب خاطر ، إذ تستطيع أن تصل إلى مصطفى وتؤدى له أى خدمة تقدر أن تقوم بها .

ودفعها إخلاصها على التسول فى الطريق ، وعلى إقلاق راحة نفسها ، ولا ترجو شيئا ألا أن ترى زوجها حرا طليقا متمتعا بكامل السعادة . وفوق ذلك قامت بخدمة لص لاقيمة له ليسهل عليها معرفة أسرار من على شاكلته . وخدمت اللص بمنتهى الدقة حتى لايشك فيها ، وجابت أجزاء المنزل غرفة غرفة لتبحث عن شيء يتعلق بزوجها فرأت حليها إذ وضعوها عند هذا الرجل حتى يقتسموها فيما بعد ، فكانت هذه أول خطوة من الخطوات الموفقة التى خطتها . وفى عصر اليوم التالى دخل اللص بيته، وقال لزوجته سيأتى عندى فى هذا المساء بعض اخوانى فحضرى الطعام وجهزى كل شيء، وعندك الخادمة الجديدة تساعدك .

ـــ من أين أحضرت هذه الخادمة ؟

ـــ إنها امرأة مسكينة كانت تخدم عند أحد زملائى وقد طردها بدون سبب معقول ، فأشفقت عليها لأنها غريبة ولا عائل لها . ومع ذلك فهى تقوم بخدمتك ، وتسهل عليك الشئون المنزلية ، وفى الامكان استخدامها فى الحقل مع الزراع وقت الضرورة .

ـ هــــذه حيلة لا أصدقها ، والحقيقة أنك تريد التزوج بها وغاية الأمر

أن الفرصة غير سانحة

ـ لا تخشى بأسا ولا رهقا

ـ وكيف ذلك وهى جميلة جداً لا يمكن أن توجد إلا فى قصور علية القوم وأغنياء الناس

ـ قلت لك أننى لا أفكر فى أمر كهذا مطلقا ، وكان فى قدرتى التزوج بأى سيدة فى الأزمان الماضية فلا تكونى كثيرة الارتياب فى إخلاصى لك

وعند ذلك جاءت عائشة فقال لها

ـ ان فى هذا المساء سيكون عندى ضيوف كثيرون فساعدى مولاتك ، وقومى بالخدمة الواجبة عليك خير قيام

ـ سمعا وطاعة

ـ وإياك والاهمال فأننى لا أرحم المهمل ولا أجعل له قيمة (ثم خرج)

فسرت عائشة نوعا وتأكدت من أنها ستقوم بلعب دور معهم فى ذلك المساء ، وستعلم أشياء كثيرة فى مصلحة زوجها . وفى الساعة العاشرة مساء تقريبا جاء أصحاب اللص وهم طبعا ممن على شاكلته ، وبعد تناول العشاء أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ، وكانت عائشة على مقربة منهم تسمع أقوالهم وهم لا يرونها ، ومن محاسن الصدف أن زوجة اللص وأبناءه ناموا وتركوها لكى تقوم بتأدية أوامر سيدها وقد سمعت الحديث الآتى : —

قال الأول

ـ لقد سئمنا من مصطفى وحاولنا عبثا إقناعه فى أن يتنازل عن أرضه وهددناه أيضا بالقتل فلم يأبه لقولنا ولم يحفل بتهديدنا

وقال الثانى

ـ إذن اقتلوه لئلا يفشى سركم ويعلن للملأ أخباركم فينالكم

عقاب لو تعلمون عظيم

وقال الثالث

ـ ما رأيت فى حياتى شابا صعب المراس كهذا الشاب الذى لا يؤثر فيه تهديد ولا وعيد ، وقد امتنع عن تناول الطعام ثلاثة أيام كاملة

وقال الرابع :

ـ وهل تقدمون له طعاما ؟

فأجابه الثالث :

ـ طبعا وإلا مات ونحن فى حاجة الى حياته ، لأن بموته يؤول ملكه الى وراثه وهم كثيرو العدد فكأنما نضيع تعبنا سدى

فقال الذى يقوم بخدمته

ـ إنه لم يمتنع الآن عن تناول الطعام بعد أن أفهمته أننى خادم مشفق عليه أحضر له الطعام خلسة فى وقت لا يشعر بى أحد ، وأفهمته أيضا أننى سأسعى فى خلاصه لأعلم جزءا من أسراره الشخصية .

فقاطعه الأول بقوله :

ـ وهل حظيت منه بشىء ؟

فأجاب :

ـ من المحال يا أخى أن تزعزعه أو تغير اعتقاده فينا ، والذى يدهشنى رباطة جأشه وعدم اكتراثه بنا ،وعند مايتكلم معى عن شىء أراه كأنه ليس فى الأسر وكأننا جميعا فى قبضة يده .

فعاد الثانى إلى الكلام بأن قال :

ـ ألم تفكروا فى مسألة زوجته — ألا تخشونها ؟

ـ فرد عليهم خامسهم :

ـ عجبا ! أبلغ بنا الجبن ياهـــذا إلى حد عظيم حتى نرهب امرأة

ونخاف سيدة واحدة ونحن عصبة ؟

فقال رب الدار :

ـ رأيي أيها الأخوان أنكم لا تستفيدون مطلقا من أسر مصطفى ، فأما أن تطلقوا سراحه إذا وثقتم من أنه لا يبلغ أمركم إلى رجال الحكومة، وأنه لا يقيم الحجة ضدكم ، وإما أن تقتلوه فتأمنوا جانبه وترتاحوا منه، وبخاصة لأنه شغلنا عن أعمالنا جملة أيام بلا جدوى . وآخر اقتراح عنـــدى أن تخمدوا أنفاسه، لأنه عدو لدود لكم لا يقعد عن أن يتأر لنفسه منكم مهما كانت قوتكم ، ولا يغرب عن بالكم أن في إطلاق سراحه خطرا عليكم، ولا يخفى عنكم أيضا أن رجال القضاء يبحثون عن الجناة في حوادث الشهر الماضى ، ونحن الذين اقترفنا هذا الجرم الهائل بقتل الرجل المعلوم أمره لديكم .

فقهقه أحدهم ضاحكا ثم قال :

ـ لا تفكر في شيء مضى ، ومن يستطيع أن يثبت علينا اغتيال حياة هذا القروى السرى ؟ فقد انتهى أجله وسكن رمسه ونسى الناس قصته .

وأجمعوا أمرهم أخيرا على اغتيال حياة مصطفي في مساء اليوم التالى، وأن يرموا جثته في مصرف يبعد عن دارهم بنحو ألف متر ، وانصرفوا على هذا الزعم أى أنهم له لمن القاتلين .

ذهبت عائشة إلى المكان المعد لنومها بعد مغادرة اللصوص للمنزل الذى هى فيه ، وكيف تذوق طعم النوم ، وهى تعلم علم اليقين أن زوجها سيلحق بالغابرين الأولين بعد يوم أو بعض يوم، فسبحت في عالم الخيال ، وغرقت في بحر التفكير ولم تهتدى إلى ساحله وقالت تناجى نفسها

ـ إن هذه هى الساعة الرهيبة والوقت الذى ينبغى فيه كل تضحية فى سبيله ، وإذا أهملت أمره وقصرت فى شأنه ضاعت حياته على يد أولئك

العابثين بأرواح البرءاء من الناس . وما هي جريرته حتى يجازى بذلك الحكم الصارم ؟ حقا إن النفس التى تجردت من كل فضيلة، وخلت عن كل مكرمة، وألفت الظلم والاستبداد ، سهل عليها العيش فى الأرض فسادا ، وهان عليها الاضرار بالناس واغتيال أرواح الهادئين المطمئنين . وما هى الحيلة ياترى حتى يرد الله كيدهم فى نحورهم ويدرأ عنه مكرهم .

لا شيء إلا أن أذهب اليه منتحلة أى عذر لحراسه ، وأفهمهم أنى أتيت بأمر من زميلهم بدعوى أنه فى حاجة اليهم ، وأننى مكلفة بالانتظار مكانهم حتى يعودوا ، ولاشك فى أنهم سيقتنعون بقولى ، وبعد خروجهم أقوم فى الحال بانقاذه ، والزمن اللازم لهم فى الذهاب والاياب ليس بقصير ، فنكون قد نجونا قبل عودتهم .

ووطدت العزم على تنفيذ هذه الخطة فى اليوم التالى قبل غروب الشمس لأنهم طبعا لا يعملون أى عمل فى النهار ، ولكن الذى شغل بالها كيفية الخروج من المنزل ، وأرجأت التفكير فى هذه النقطة إلى الغد .

وفى الصباح جمعت الرسائل التى استطاعت جمعها ، وهى تدل دلالة واضحة على ما ارتكبه صاحب الدار وإخوانه من الجرائم ، وأخبأت فى قميصها خنجرا عثرت عليه لتدافع به عن نفسها وقت اللزوم . وفيما يتعلق بحليها أصبحت بين عاملين . العامل الأول هو أخذها لأنها حق من حقوقها ، والعامل الثانى هو تركها إذ لا تستطيع أخذها ، وأخيرا فضلت تركها لأن بين الأوراق التى تحت يدها ما يثبت سرقة نقود زوجها ، وما يبرهن على وجود حليها عند ذلك اللص الذى اشتغلت كخدمة عنده .

وصبرت على آلامها وتحملت ما يجرح فؤادها حتى العصر وخرجت

تحمل جرة معها موهمة ربة الدار أنها ذاهبة لملئها ، ولما صارت فى الطريق قابلها على سبيل الصدفة صديق من أصدقاء مصطفى الأوفياء فعرفته فى الحال لتردده فى بعض الأحايين على منزل زوجها فاستوقفته

فقال لهـا

ـ هل من خدمة ياسيدتى

ـ نعم فأنا فى حاجة شديدة اليك الآن

ـ وهل تعرفيننى من قبل فأنى لا أذكر أن رأيتك مطلقا ؟

ـ نعم أعلم ذلك ولكن أصبر قليلا فأنا زوجة صديقك مصطفى

ـ زوجة مصطفى ! أمر غريب جدا

ـ لا تستغرب فللدهر تقلبات ،ومصطفى الآن فى قبضة لصوص، و إذا لم ينج اليوم سيقتلونه هذا المساء

ـ وأين المكان الذى هو فيه حتى أنجيه فى الحال ، فأن له على من الأيادى البيضاء ما لا أنساه ما دامت روحى فى جسدى .

ـ شكرا لك ـ والمساعدة التى أود أن تؤديها هى أن تذهب فى هذه اللحظة إلى رجال الشرطة وتنبئهم بمقره . وهو فى هذا البيت المنعزل ونكون أنا ومصطفى مدينين لك بحياتنا ، ولا تحمل نفسك مؤونة المخاطرة فعددهم جم وقلوبهم ليس فيها ذرة من الرحمة

فودعها فى الحال على أن يقوم بما أمرت به على عجل ، وأما هى فقد حملت جرتها على رأسها وقصدت البيت الذى فيه بعلها . وعندما صارت أمامه طرقته بخفة ، فخرج لها أحدهم وبعد أن عرفها وتأكد من أنها خادمة زميله قال لها

ـ ماذا تطلبين

ـ إن مولاى أمرنى أن آتى إلى هنا لأنبئكم أنه فى حاجة اليكم جميعا فى هذه اللحظة لأمر هام جدا

ـ ألا تعلمين لماذا ؟

ـ لا أدرى سوى أنه مرتبك جداً

ـ وكيف تترك البيت وحده ؟

ـ أمرنى أيضا أن أحرس البيت حتى تعودوا

ـ وما هذا الذى على رأسك

ـ هذه جرة سأملؤها من الترعه القريبة بعد عودتكم

ـ إذن امكثى هنا ،وأغلقى الباب عليك من الداخل ، ولا تسمحى لأحد بالدخول مطلقا

ـ سمعا وطاعة

فاستدعى أخوانه وعرض عليهم ما سمعه منها ، وصحبهم إلى بيت زميلهم وتركوها فى الدار وأمروها أن تجلس فى مكان معين وحذروها من أن تجوب الغرف وتبحث فى محتوياتها .

فخلا لها الجو وظنت أن الزمان صفا لها ، فأسرعت إلى ضالتها المنشودة ، فوجدته على حالة تدمى القلوب وتقطع الأوصال ، مكبلا بالسلاسل ، وتطلعت إليه وهو ساه عنها كأنه فاقد الصواب ، أو كأنه ليس من الأحياء ، فبكت واندفعت نحوه تعانقه وحات وثاقه وحدث كل هذا وهو يحسب أن ذلك أضغاث أحلام ، وتوهمها صورة خيالية . فقال وهو بين مصدق ومكذب

ـ من أرى ؟

ـ أنا ياسيدى قد أتيت لانقاذك

ـ أعائشة أنت ؟ وكيف تخاطرين بحياتك ؟ فهل أستحق منك كل هذا ؟

ـ إن أول واجب على السيدات أن يضعن نصب أعينهن الأخلاص لبعولتهن ، وأن يضحين فى سبيلهم كل مرتخص وغال ، وما قمت بهذا الأمر إلا لعطفك على ، ووفائك لى ، ولقلة نصرائك وكثرة أعدائك .

ـ أننى عاجز عن شكرك ولكننى آسف جدا إذ كبدتك متاعب جمة . وكيف تمكنت من الوصول الى مع أنهم يلازمونى كظلى ، ولا يبرحون هذا البيت الا فى منتصف الليل تقريبا بعد أن يتركوا العدد الكافى لحراستى ؟

ـ دع الأسئلة الآن ، وهيا نرحل من هنا بسرعة ، وإذا أبطأنا داهمنا اللصوص وفسد تدبيرى وضاعت حياتى وحياتك هباء منثوراً .

فلم يسألها تبعاً لرغبتها ، وأرجأ ذلك إلى ما بعد الخروج من معتقله والاطمئنان على نفسه وعليها . وفى أثناء نزولها معه أخذت تقص عليه قصتها بالأيجاز وتذكر له الأهوال التى قاسْتها ، والحيل التى دبرتها ، وهو يستمع لكلامها بكل انتباه حتى إذا ماتوسطا فناء الدار فتح الباب بقوة ودخل اللصوص جميعهم .

والسبب فى ذلك يرجع إلى أن القوم المنوطين بحراسة مصطفى قابلوا صاحبهم على مقربة من مقر إقامتهم ، وشرحوا له قولها ، وسألوه عن بغيته ، والأمر الهام الذى استدعاهم من أجله ، فأخذته الدهشة ، ولم يفهم ما ذكروه فأعادوا كلامها مرة ثانية فقال :

ـ إذن هذه المرأة لم تكن خادمة ، لأن حالتها لاتدل على ذلك ، ولم تمتهن هذه المهنة إلا لتطلع على خفايانا لتدبير مكيدة نكون بمقتضاها من الهالكين . والمرجح أنها زوجة لمصطفى ، ولو علمت شيئا من دهائها من قبل لألقيت القبض عليها ، وأولى لنا أن نسرع إليهما قبل أن يتمكنا من الفرار .

فقال له أحدهم :

ـ أمسينا مهددين وأخشى أن تداهمنا الأخطار من كل جانب ، فماذا أنتم فاعلون ؟

فأجاب :

ـ لا تكن كثير الأوهام وهيا بنا قبل فوات الوقت .

وانطلقوا يقابلون بقية أخوانهم وأخبروهم بما تم ، وساروا سويا حتى صاروا أمام مصطفى وزوجته على الصورة التى ذكرناها سابقا .

فلما رأتهم عائشة خاب رجؤها فى النجاة ، واكفهر وجهها ، وأظلمت الدنيا فى عينها ، ونظرت إلى زوجها تودعه الوداع الأخير ، وأما مصطفى فلم يبد أمراً ، وأيقن أن هذه آخر لحظة من عمره ، إلا أنه تجلد وأخذته الحمية لوجود زوجته بجواره ، ولابد له من الدفاع عنها حتى النفس الأخير .

فقال الذى كانت فى خدمته مستهزئا

ـ ظننتنى أيتها الحمقاء أبلها تدخل على حيلتك ، فغششتنى حتى آويتك عندى ، وما أنت إلا جرثومة فساد . وقد وقعت فى شر أعمالك ، وسترين الآن العذاب الأليم والموت الأحمر .

فكان جوابها :

ـ إفعلوا ما تشاءون . ولكن هل من الشهامة والنخوة أن يقف عدد عظيم لمصارعه شاب واحد وزوجته ؟ إن هذا لدليل على أنكم لستم إلا ظلمة قساة القلوب . اتركونا وشأننا وخذوا علينا ميثاقا ألا نذكر عنكم شيئا .

فقال رجل منهم

إجهزوا عليهما واكفونا مؤونة وقاحتها وفلسفتها الفارغة ، وماذا

عليكم لو ارحتمونا منه ومنها فعجلوا بقتلهما ؟

فقال مصطفى

ـ ما ذا تستفيدون من قتلنا ؟ بل أفهمونى المزايا المادية التى ستعود عليكم من إراقة دمائنا ، وفوق هذا اعتقدوا أنكم لا تستطيعون إلى قتلنا سبيلا ، وأنى لجبناء مثلكم أن تمتد أيديهم الأثيمة الينا ؟ وسأريكم مبلغ قوتكم ان لم تطلقوا سراحنا .

فهجموا عليهما وأبلى مصطفى بلاء حسنا ودافع بشدة ، وكان كالفارس الصئول فى حومة الوغى ، وكان مركزه دقيقا جدا لأنهم كثيرون من جهة ولدفاعه عن زوجته من جهة أخرى ، وأما هى فقد أخرجت خنجرها وهددتهم به لكيلا يقتربوا منها

وهجم أحدهم على عائشة وخطف الخنجر من يدها ، وطعنها به فوقعت على الأرض . وفى ذات الوقت وفد رجال الشرطة يتقدمهم صديق مصطفى الذى قابلها وأخبر رجال القضاء بناء على إشارتها ، وقبضوا على اللصوص جميعا . وتقدم مصطفى نحوها فوجدها على قيد الحياة وسلمت الخطابات التى وجدتها فى منزل أحد اللصوص للمحقق ، ، وذكرت ماشاهدته وما وصلت إليه من المعلومات الخاصة بهم .

وبعد الكشف الطبي عليها تقرر علاجها مدة ما ، وسيق المجرمون الى المحاكمة . والأمر الذى نأسف له كثيرا أن الطعنة كانت سببا فى دنو أجلها بعد بضعة أيام فماتت شهيدة الوفاء وضحية الاخلاص .

وقد لحقت بمصطفى الآلام وألمت به الأحزان ، ونسى لذة الحياة وفقد بموتها كل أمل فى الوجود ، ومضى بقية عمره كئيبا لا يسلوها ولا تغيب عن باله .

وعرض عليه الزواج بغيرها فلم يقبل ، لأنها حلت فى فؤاده محلا لا يمكن محوه ، فرحمة الله عليها ورضوانه على اللواتى يخلصن لأزواجهن وعلى الذين لا يعذبون بنات حواء ولا يظلمونهن .

وثبت على اللصوص بعض التهم ، وقرر المحققون إدانتهم فى أربع حوادث جنائية ، فصدرت عليهم الأحكام القانونية جزاء وفاقاً لما ارتكبوه من الجرائم ، فلحا الله الآثمين وقرناء السوء والمجرمين ؟

على السبورة

على صفحتها السوداء تتبارى الأفهام لأظهار نور العرفان ، وتبديد ظلام الجهالة . وما هى بتلك القطعة الخشبية فحسب ، بل المقصود منها ما يدون عليها من ملخصات العلوم ، وما أعده الأساتذة لكشف ما غمض من أسرار الطبيعة ، وما خفى أمره من الحقائق الكونية ، والمسائل العويصة وغير العويصة .

ولا تحسبن أن القول يلقى على عواهنه ، أو أن ما يسطر عليها يأتى عفو الخاطر ، بل إن كل من تصدى لخدمة العلوم وتفسيرها ، يفكر فى الطريقة ووسائل الأيضاح ، وأسلم الطرق المؤدية إلى توصيل المعلومات إلى أذهان الناشئين ، والراغبين فى أن ينهلوا ويعلوا من موارد العلم الفياضة .

ولقد تضافر أساطين التربية منذ عهد بعيد على رسم خطط مثلى لاستخدامها استخداما صحيحا ، لايضيع على الأستاذ جهوده ولا على الطالب وقته . وغنى عن البيان أن المدرسين الفنيين وحدهم هم الذين استفادوا من هذه الناحية ، ودرسوا الغث والثمين من هذه الآراء ، وقاموا بالموازنة والمفاضلة بينها،ثم طبقوا العلم على العمل واتبعوا أسماها ونبذوا غير المجدى منها .

ولا جرم أنك تستنبط مما قدمناه لك أن السبورة ضرورية ، وأنها لاتصلح إلا مع مدرس كفء عارف بواجبه . وكما أن المشرط لا يصلح إلا فى يد جراح مختص ، ولا يتعاطى مهنة الطب إلا من علا شأنه فى هذا

الباب ، فكذلك لا يحسن أن يقف وقفة المربى إلا مختص ، له من كفايته وتجاريبه ما يجعل قواعد التدريس سائرة فى مجراها الطبعى ؛ بحيث نأمن على مستقبل فلذات أكبادنا .

وإذا كان الطب مقصوراً على طائفة المتخرجين فى كلياته احتفاظا بأجسام الناس من عبث العابثين ، فقد آن الوقت على قصر وظائف التعليم على المتخرجين فى معاهد المعلمين . وطب الأجسام لا يعدل طب النفوس . وما الجسم كالعقل ، وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وقد اتخذ هذا العنوان جمهرة صالحة من المربين كأساس لكثير من أصول التربية ، إذ سينشرون تحته كل ما عن لهم مجتمعين أو فرادى فيما له اتصال بالحركات التعليمية ، التى تتمشى مع المصلحة العامة لساكنى ربوع وادى النيل ، وسيكتبون تباعا ما تمس إليه الحاجة من دراسة المواضيع الهامة التى تفتقر إليها البلاد فى الوقت الحاضر . وسترى أقلاما تسبح فى توضيح المناهج وتعديلها ، والتعليم الأهلى وإصلاحه ، والثقافة العامة والانتفاع بثمراتها ، وإرشاد الجمهور إلى ما تحمد مغبته فى النقط الجوهرية التى يحتاج اليها الآباء فى تربية الأبناء ، الى غير ذلك مما سيظهر فى حينه حسب المناسبات وملابسات الظروف . وهم بهذا سيؤدون واجبا وطنيا فوق واجباتهم المضنية فى معالجة أعمال وظائفهم الشاقة ، ولا يقصدون منها مصلحة أو عوضا إلا إقبال القراء على تمحيصها ووضعها موضع دراسة وبحث وعناية .

الحب والزواج

لو أن الهوى العذرى يمكن تحقيقه أو تطبيقه عمليا ، لكان أداة صالحة لربط أواصر القلوب ، وخلق السعادة بين الزوجين . لأن شغف كل منهما بالآخر يحملهما على المضى فى الحياة بهدوء واطمئنان ومودة ، واغضاء عن بعض الأخطاء التى تستلزمها أحيانا المخالطة والمعاشرة .

ولكن أنى لنا به وأنت لاترى الا فتى ينطق بألفاظ الحب وقلبه مغلق دونها ؟ ويكتب من الرسائل ما شاءت له أهواؤه لهذه ولتلك ، وهو يتنقل من فؤاد الى فؤاد ليظهر براعة فى التأثير على بعضهن ، وليتحدث إلى إخوانه عن مهارته وكثرة صويحباته . وإن تم الزواج على هذا الأساس فأن العلاقات الزوجية قابلة للانهيار ، لأنه بعد أن يعيش فى كنفها مدة طال مداها أو قصر ، يعود الى ضلاله القديم ، ويفكر فى ثانية أو ثالثة . وهذا النوع لاثبات عنده ولا ثقة فيه وما غرامه الا محض ادعاء .

ومما يشككنى فى الحب كثيرا أن الشاب قبل بدء الزواج يكون قد هول فى استجلاب رضا من يريدها لنفسه بجمل كثيرة جدا لاستعطافها ودر رحمتها ، وكثيرا ما يبكي بين يديها إذا مارأى منها إعراضا أو تحاملا ، أو تقريعا أو عتابا مرا . وطالما رأته خاضعا لسلطانها مخاطبا لها فى شيء من الظرف والتواضع ، فعند ما تصبح له شرعا لايمكنه أن يخاطبها بلهجة تختلف عن الماضي ، والمرأة إذا تدللت اشتطت أحياناً . وهي مالرتضته زوجا ولا

اختارته عشيرا إلا لعلها أنها ستسمع منه هـذه النغمة التى اعتادت سماعها . فاذا عدل عنها وهو المنتظر طبعا ، انقلب حبها بغضا ، أو على الأقل ارتابت فى أمره وكثر عتبها وضجرها من هذا الانقلاب . وعندئذ تضعف المودة بينهما ويقل الولاء والاخلاص .

وربما كان السر فى نمو العاطفة القلبية جمالها الفتان ، وهو لا ثبات له فقد يضعفه مرض أو يذهب رواءه الزمن ، وعندئذ تزول أسباب الحب فكما اتجه قويا فى الزيادة ينحدر بشدة فى النقصان حتى يتلاشى أو تخمد جذوته .

وإذا انطوى على خبث واشتمل على أغراض غير شريفـــة ونجم عنه الزواج فانه لا بقاء له ، إذ يزعزعه سوء الظن لأن من مطمحت عرضها مع امرىء لاتتورع أن تتعداه إلى سواه ، ولو أن شيئا من هذا لايحدث ، فأن الارتياب يستمر ماثلا أمام عينى الرجل طيلة انقطاعه عن منزله ، فكأنه وضع نفسه فى دائرة محدودة من الغم وإنهاك القوى العقلية والجسمية ، فى غير ما داع ولا سبب جوهرى ، والابتعاد عن هذا النوع من الزواج خير وأبقى .

ويجوز أن الانسان يقع فى حبائل الغرام بناء على خلاعة الفتاة ، وتمثيلها أدواراً لتتمكن من امتلاك قياده ، وسرعان ما يخضع لها دون وعى أو تفكير . والحب على حد قول بعضهم يعمى ويصم .

وأنا معك فى القول بأنه قد يميل إليها عن يقين ، ويخصها بالعطف عن نزعة نفسية شريفة لا غبار عليها . ولكنك إذا قدرت أن الشاب يندفع وراء قلبه لاعقله ، فانك ترى رأيى فى أن هذا الحب لايثمر الثمرات المرجوة التى فرضها لنفسه إذا أقدم على الاقتران بها ، فقد تكون المرأة من الوسط الذى قال فيه النبى ﷺ (إياكم وخضراء الدمن) فقيل ومن خضراء الدمن

يارسول الله قال (المرأة الجميلة فى منبت السوء) .

وفى طبقات الممثلين أمثلة واضحة للبرهنة على ما أوردناه فى هذا المقال . ففى اليوم جيدها لواحد ، وبعد عام أو بعض عام معصمها لسواه . ومنهم من يحدثك عن زواجه الأول والثانى إلى العاشر مثلا . ومنهم من يقيم الدنيا ويقعدها لأن شخصا يزاحمه على زميلة له . فلما أصبحت له وأصبح لها فترت عاطفته ، وهدأت ثورته ، وغادرها إلى غيرها ، أو آثرت عليه هاويا آخر وتلك سلسلة لاتنتهى حلقاتها .

ولعلك تؤمن أن الحب فى بعض الأحيان يغنى عن الزواج ، فما دام للمرء صاحبة يتصل بها سرا أو علانية ، فهو لايرى معنى لتكوين أسرة تتعبه بمطالبها ونفقاتها . وربما كان من أسباب أزمة الزواج شىء كهذا فبئس الفسوق وبئس كبائر الأثم .

وإن ثقتى فى الرسائل الغرامية قليلة . ولا تتوهمن أن ليس لى رأى فى ذلك نظرا لانحدار نا عن بدء الشباب نوعا ما ، فلقد قرأنا منها الشىء الكثير وكان لها مالها من أثر فى حينها . وأكبر الظن الآن أنهـا كانت خيالية أو لحاجة فى النفس . وهنالك أفراد يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . وهنالك أيضا آنسات يدبجن بيراعهن ما لايعبرن به عن شعورهن الحقيقى . وليس فى مقدورنا أن ننفذ إلى الأفئدة فنعلم ما بطن منها وما استتر .

وإذا سلمنا جدلا أن الحب كان صحيحا لا تشوبه شائبة ، فهل ضمنا أنه ينتهى بالزواج . لا أظن ذلك . فهنالك حالات لاعداد لها . كانت الخاتمة فيها فراقا أبديا ، إما لوشاية عاذل ، أو لتدخل الأهل ، وإما لعجز الرجل عن إتمام الزواج لفقره أو لتهديد والده له كحرمانه من ميراث ، وإما لتقدم رجل آخر لطلب يد الآنسة ، وكان من المقدر له أن تكون من نسائه وليس من

الضرورى أن أعدد لك العوامل التى من أجلها تتم التفرقة فأنت ملم بالكثير منها .

وما رأيك إذا علم الزوج بالصلات القديمة ، فأنه يحتقر المرأة احتقاراً عظيما ، ويجوز أن يعمل على الخلاص منها ولما يمض لهامعه إلا بضع شهور . ولعل ما يذاع عنها فيما له علاقات بالماضى يسىء إلى سمعتها ، ويحول بينها وبين الراغبين فى الزواج منها ، وما الذى يحمل الناس على الأقدام لتفضيلها على غيرها ، اذا تبين لهم أنها يوما ما قد أسكنت فى فؤادها زيداً أو بكرا ، وبنات حواء ملء الشرق والغرب . وفيهن من تماثلها أو تفوقها جمالا أو ثروة أو جاها .

ولا أرانى مغاليا اذا ضمنت هذا البحث شيئا عن بغضى لنوع من أنواع الحب ، وهو ما يستند اليه بعض الفتيان لبلوغ غاية . فاما بجح الفتى انكفأ إلى أهله وتركت الفتاة مصعوقة من هول ما أحاط بها من كوارث وخطوب ويا ليتها استمعت لنصح واعتبرت بعظة فأنها لو فعلت ذلك ما تندمت ولا سقطت ، ولا خرجت من ميدان الشرف منخذلة كسيفة البال .

وإنى لموقن أن الشرح على هذا النحو يغضب بعض الباحثين الذين لا يكترسون بالعادات المتوارثة والأخلاق الحميدة المتفق عليها . ولا يطرب له من حملنا عليه بالنقد ، وحذرنا الجميع من لؤمه وخداعه ، وطرق غوايته . وفى قدرة بعض الكتاب مناقضة هذه الآراء لو نظروا الى الحب نظرة فيها حسن النية ، أو ضربوا لنا أمثلة شبيهة بمجنون ليلى وصاحب عزة والمتيم بعفراء . ولكنهم مهما قاوموا أو برهنوا على شئ فأنهم لا يستطيعون إنكار هذه الفقرات ، فأنها ليست بمجرد آراء ، وإنما هى تطبيق لأمثلة واضحة تحدث حينا بعد حين .

ويغلب على ظنى أن القارىء ربما يستنتج أنى أكره الحب وآثاره من غير تفكير، إلا فى سيئاته . والواقع غير هـــذا ، فقد كتبت فى ثمرات الوجدان مقالا عنوانه حسنات الغرام ، حللت فيه ما للحب الشريف من مآثر ، ولكنه نادر الوجود . وعلى الجملة كانت نظرتى إليه فى الكتاب الأول إيجابية ، ونظرتى إليه فى الكتاب الحالى سلبية .

وإنى أجمل لك القول فى أن الحب وحده غير كاف لوجود السعادة فى الحياة الزوجية ، إلا اذا أضيف اليه حسن الاختيار ، واستعمال الحسنى فى معاشرة الزوجة ، والاطمئنان إليها لأدبها الجم والتسامح من جانبها أيضا إذا هفا الزوج هفوة أثناء غضبه أو ألمه .

إن الاحترام المتبادل بينهما ، والثقة التى يجب أن يضعها كل منهما فى الآخر أبقى عليهما من ألفاظ خلابة ، إذا تقادم عليها العهد زالت ، وأصبحت أثراً بعد عين . وإذا قدرت أن الزواج ليس بالأمر الهين ، وأنه لا يتعلق بك وحدك بل بأبنائك معك ، وجب عليك ألا تتسرع فيه ، حتى تكفل لك ولهم راحة دائمة وهدوءاً مستمرا .

القلم السجين

يسألنى قوم يحسنون الظن بشخصى الضعيف ، علام هجرت الكتابة ووليت عنها وجهى ، وسجنت القلم ولم أعد أستخدمه فى الأبانة عن خواطر كانوا يرون ضرورة نشرها ، لينتفع بها أبناء الجيل الحاضر ، لما تضمنته من حض على الفضيلة ، ومحافظة على الخلق القويم ، ومسايرة لطب العقول وعلاج النفوس .

وهم فى توجيه سؤالهم ينحون على باللائمة ، ويرون أنى أسأت إلى نفسى ، لأن كثرة الكتابة سبيل الى الشهرة ، وطريق الى الرفعة ، وأسأت الى القراء لأن من حقهم ألا يتوانى الأدباء عن مدهم بثمرات قرائحهم بين آن وآن ، حتى يتكون رأى عام مستنير ، يقدر الأدب وذويه ، ويفقه ما يجب عليه نحو الكرامة والمروءة والبر والتقوى .

وإطلاق السؤال على هذا الشكل ، كان يجب أن يوجه الى علم من أعلام البيان ، وإمام من أئمة المنشئين ، ذوى القدم الراسخة فى هذا الباب . أما أنا فلا أعتقد أنى بلغت هذه الغاية ، لأن لنا فى ظروف الحياة ومتاعبها ماحال بيننا وبين متابعة الأنشاء مدة طويلة ، ووقف حجر عثرة فى سبيل تنميق الرسائل ، وتحرير المقالات ، ونظم القصائد ، والمساجلات الأدبية ، والتعليقات على ماله مساس بالاجتماع والحقوق والواجبات الوطنيـــة وغير الوطنية .

ولا أنكر أن الفترة التى سجنت فيها قلمى لم تكن قصيرة ، فهى لا تعد بالأيام ولا بالشهور ، وإنما تضمنت بضع سنين ، خيل للأوفياء من إخوانى والراغبين فى أن أتابع الخطوات الأولى ، أنى انعزلت انعزالا كاملا عن هذا الفن الجليل . ولولا حنين الى الحرية ، ونزعة إلى إطلاقه من عقاله ، ورغبة تساور النفس دائما الى الرجوع الى سابق العهد ، لظل سجينا الى يوم يبعثون .

ولعل من حق السائل الكريم أن يعرف الأسباب التى من أجلها حيل بينى وبين ما يقصد من اطلاعه على ثمراتى فى حينها ، وبخاصة أننى لا أرتضى القصور لنفسى ، وأود ألا يفهم الناس فى إهمالا مزريا ، أو ضعفا شديدا . ولعله يقتنع بوجهة نظرى ، ويدرك سر الانقطاع ، فيعدل عن اللوم والتأنيب فمن الناس من يميل إلى عمل وينصرف اليه بكلياته وجزئياته ، ويسعى له سعيه الأوفى ، ويرغم أحيانا على العدول أو النكوص على عقبيه ، أو تأجيل ما ينوى اتباعه بشأنه إلى أجل مسمى ، فلما كثرت العقبات ، وتنوعت أساليب التعطيل ، كان الأجل غير مسمى .

ماذا أصنع يا سيدى السائل ، وأنت على يقين من أننى مدرس أرهقوه بكثرة الحصص وتنوع المواد ، طول عهده فى لانضمام إلى طائفة المربين . فهو دائب فى الليل فى التحضير ليوفى مهنته حقها ، وقاطع للنهار فى الشرح والتفهيم ، وفى لحظات راحته ينكب على الكراسات يصلح ما بها من أخطاء . ولا يغيبن عنك أنها تعد بالمئات لا بالعشرات . ولو خففوا عنه هذا العبء الثقيل ، لوجدته أطوع اليك من بنانك . ولكن ماحيلته ؟ وهو لا ينتهى من عمل إلا ويبدأ فى سواه . وهو لا يتبرم بالواجب أو يطلب لإقالة منه ، وإنما يشكو تعبا جما مضنيا إن لم يكن مهلكا . ويرجو لو أنهم

يتركون له شيئا من الراحة ليبلغ حد الكمال ، وغاية الاتقان ، فى معالجة ما كرس الحياة من أجله .

وهم لا يكافئونه على مجهوداته إلا بجعل ضئيل ، لا يتناسب مع مركزه فى الهيئه الاجتماعية ، ولا يمكنه من شراء المراجع ، وكثير ما هى ـ ليزيد فى ثقافته ، فتسمو عبارته ، ويعظم إنتاجه ، ليكون موضع إعجابك على الدوام . وياليتهم اعتبروه كنظرائه من المتخرجين مثله فى المدارس العليا الأخرى ، غير أنه لسوء حظه معلم ، والمعلمون على ما يظهر مهضومو الحقوق فقلل من لومه والحملة عليه .

وعما يزيد فى آلامه ويعوقه عن التفكير فى المنثور والمنظوم ، وموالاة البحث ، أن الفلك كلما دار دورة بعد دورة ؛ أخذ أبناؤه فى النمو الجسمى وهو كمصدر من مصادر التربية ، يرغب فى نموهم العقلى والخلقى ، وتزويدهم بالعلم الصحيح ، ولكنه لم يجد من أولى الشأن عطفا ، فلم يتمتع أحد منهم بالمجانية . وهو أحق الناس بالرعاية من هذه الناحية ، ومن أجل هذا يفزعه حلول موعد الأقساط ، ويقض مضجعه خشية السقوط فى ميدان الجهاد فى إعدادهم إعدادا طيبا .

وإذا شرد البال على هذا النحو ، فمن أين له أن يمدك بدرر أو بغرر ؟ وكيف يتسنى له أن يستوحي ذاكرته أو يهيم حيث يشاء فى الابتداع والابتكار والأجادة ؟ والأمر محتاج إلى صفاء الذهن ، وهدوء النفس ، وحصر الانتباه فى حياكة برد القطع الاجتماعية ، وصياغة وشيء الآراء الخلقية .

يكفيه أيها السائل المبجل ما يعانيه من أوصاب ، وما يتعرض له فى خاتمة كل عام مدرسى من اضطراب حول مستقبله . وهل سيتجدد عقده

للسنة التالية ، أم سيستكثرون مرتبه لأن فى السوق من هو أرخص ، ومن فى مقدوره تأدية الوظيفة وشغل المنصب . ولا يستقر قراره إلا بعد أن يكون قد مضى من الصيف جزء كبير . وهى عملية تتكرر باستمرار ، وفيها ما فيها من المتاعب والارتباك .

وكم من مدرسة حبست عنه ما التزمت بدفعه له فى مستهل كل شهر ، والأجير كما لايخفى على فطنتك يعول كثيراً على هـذه الدريهمات القليلة فى سد نفقاته ونفقات أسرته . وهو يشعر بالضيق فى الأوقات التى ينال فيهـا ماقسم الله له به ، فما رأيك لو امتنعت عنه موارد الرزق .

وإنى أقول لك فى شيء من الصراحة ، وهي ممضة فى كثير من الظروف ، أننا بلينا بفريق من بعض أصحاب دور العلم ممن لايشفقون علينا ولا يرحموننا ، ويظنون أن مايجمعونه من المال خاص بهم وحدهم ، فيساوموننا مساومة مزرية ، ثم يبكون أو يتباكون من الخطر الناجم عن العجز فى الموارد ، ليظفروا بالتنازل لهم عن شهر أو شهرين أو خمسة . فأن لم ينجحوا أجلوا الدفع أو أحالونا على الأعانات ومداها بعيد .

كل هذا والأساتيذ متقاطعون متدابرون ، لاتربطهم كلمة ولا يضمهم منتدى يتذاكرون فيه شئونهم ، ويتعاونون على رفع الغبن عنهم ، فى حين أن الذين كانوا يصلونهم ناراً حامية يكيدون لهم فى الخفاء ، ويجمعون أمرهم على القضاء عليهم من جهة العلاقات فى العمل والعقود والمرتبات .

وكانت الشكايات تترى من كل مكان ، وليس من سميع . وترك زملاؤنا تحت رحمة الأقدار لم تجدهم ثقافتهم ، ولم تغنهم شهاداتهم ، ولم تكن كفاءتهم لهم شفيعاً فى إيقاف هذا الاعتداء ومنع ذلك التلاعب بالمستقبل . حتى لتجدن موظفا حكومياً من الحرف الثالث أهنأ منهم بالا وأرغد عيشاً .

وما جرى على المجموع يجرى على الأفراد . وما كنت إلا واحداً ممن شرحت لك بعض آلامهم ، وأجملت لك شيئاً عن النكبات التى انهالت عليهم ، مع أنهم قادة الفكر وخدام العلم ، وباذلو النفوس والمهج فى إحياء الهمم وتنوير الأذهان .

تلك هى بعض الأسباب الرئيسية التى من أجلها وقف القلم حائراً أو ظل سجينا . وهنالك أسباب ثانوية لا محل لذكرها الآن . وإنى نزولا على إرادة إخوانى أعود إلى الميدان ، وبخاصة إذ نجح الأساتذة فى القضاء على الماضى ، وكونوا لهم منتدى يضم شتاتهم ، ولجنة للدفاع تنطق بلسانهم وتحقق آمالهم .

ولا أعبر فى مقالى هذا عن نفسى شخصيا ، وإنما عن كل المشتغلين بالتعليم . ولو أنصفوك أيها المعلم ، وأراحوا ضميرك ، لما سجنت قلما ، ولا عطلت فكرا ، ولاستمادوا من مجهوداتك ، وعلمك وأدبك ، وتجاربك ومذكراتك وآرائك القيمة .

سكير فى جنازة

تعتبر المجاملات بيننا من أوليات الأمور فى العلاقات الاجتماعية ، المتصلة بالقرابة أو الجوار أو الزمالة أو الصداقة ، وقلما وجدت واحداً منا يهمل فيها سواء أفى القرى أم الأمصار . بل إنك تجد الكثيرين يهرعون لتعزية من اعتدى الموت على أحد أفرادهم ، ولمواساتهم فى مصابهم ، وإذا أهمل شخص فى ذلك عن نسيان أو عدم علم ، أو لأن الظروف عاقته عوتب عتاباً مراً ، واعتبره القوم مقصراً لا يرعى حقوق الجوار ، ولا يحافظ على واجبات الصداقة . ولا يسعه إزاء هذه الحملة المنكرة إلا الاعتذار وهو فى ذاته مجاملة .

ولا مندوحة من مقاسمة الناس أحزانهم ، والاشتراك فى تخفيف البلوى عنهم ، وملازمة من نكبهم الدهر فى اليوم الذى أصابتهم فيه الكارثة ، ومعاونتهم فى ضرائهم ، وهذا عمل إنسانى قبل كل شىء ، ويؤجر عليه المرء إذ يعد السعى له مشكورا .

وليس من شك فى أن اشتغال الأنسان بالتحدث إلى إخوانه أو سماع ألفاظ نصحهم له باحتمال المكروه بالصبر الجميل ، يلهيه عما هو فيه من غم أو ألم ، لفقد أبيه أو أخيه ، أو لعدوان الموت على فلذة من فلذات كبده .

على أن كل شىء يمكن اصلاحه أو تعديله أو منع خطره الا الموت ، ولا

يسع الناس إزاءه إلا البكاء ، لعجزهم عن رد المقدور ، وكل من عليها فان .

أقول هذا بمناسبة وفاة زميل لنا لم يتجاوز عمره الثلاثين ، ولكنه ترك وراءه أما حزينة ، وبعض أطفال لم يزد سن أكبرهم على الثامنة . ولم يخلف لهم شيئا يقتاتون منه ، فكان لمأساته أكبر وقع على النفوس ، والله كفيل برعايتهم ، وتهيئة الوسائل لإصلاح شأنهم .

ولقد بادر إخوانه ومريدوه ، والساعون فى الخير ، لتشييع جنازته ومواراته التراب ، والوقوف على قبره لرثائه تارة ، وإذراف الدمع السخين عليه وعد مناقبه تارة أخرى .

وما الموت بغريب حتى أحدثك عنه ، فأنت تشاهد قوافله يوميا . وما دامت الأرض فلا بد من مخلوقات تظهر ، ومن أحياء تفنى . وإذا دعا أحد لسواه بطول البقاء ، فهو مقدر فى نفسه أن لا بد من حلول هذا اليوم المشهود مهما امتد الأجل أوطال العمر .

ولكنى أحدثك عن بعض الشئون الاجتماعية التى أفردت لها هذا الكتاب ، وأتلمس نقد العيوب فى كل شأن ، سواء فى العمل المصلحى أو اعتداء القوى على الضعيف ، أو فيما يتعلق بالذين لا يكترسون بمستقبل الأمة أو كرامتها أو أخلاقها الفاضلة ، أو الذين لا يراعون شعور الغير فى الأفراح والأتراح .

ولعلك عاذرى فى الحملة على رجل بلغت به سماجته أن ذهب الى منزل الفقيد السابق الذكر ، ليشترك فى الجنازة على ما أظن ، بعد أن شرب مثنى وثلاث ورباع ، أو ضعف ذلك مرارا وتكرارا ، فلعبت الخمر برأسه ، وبعد أن انتظم عقد المشيعين ، وجدته يخترق الصفوف بغير وعى ، ويتمايل

يمنة ويسرة ، ولا ينقل قدمه إلا بكل مشقة . فدلني مظهره على أنه ثمل . وخشيت أن يحدث منه مايصدر عادة عن السكارى ، فى ساعة نحن أحوج فيها إلى الخشوع . ولن تجد واعظا يعدل الموت أو يربو عليه .

أدهشنى هذا التصرف الغريب ، إذ كيف يختلف الانسان إلى الكاس والطاس ، قبل ذهابه إلى قوم لا ينبغى أن يزيدهم كدرا على كدر . وكانت دهشتى أكثر عند ماسبح فكرى فى معرفة الأسباب التى حملت هذا السكير على القيام بالواجب ، ذلك لاعتقادى أن هذا النوع من الناس سقيم الوجدان ، قليل الاهتمام بالغير ، ولا يحفل بالنكبات التى ينوء تحتها الأخوان أو الأقارب ، لأنهم فى غفلة بمعاقرة الكؤوس أو هم فى طغيانهم يعمهون .

وسرنا الهوينى والأنظار متجهة إليه ، ورأيت بعضهم يتغامزون عليه ، ويسخرون منه ، ويحاولون إخفاء ابتساماتهم . لأن المجال يدعو للأسى ، ويعد من سوء الأدب أن يضحك شخص أمام امرىء هجمت عليه الأحزان من كل مكان .

وظننت أن المسألة ستنتهى عند هذا الحد لولا أن سمعت صوته المزعج المضطرب يشق السكون الذى شملنا ، إذ اصطدم مع أحد المستائين من مسلكه المزرى . ولم يستطع أحد أن يوقفه عند حد ، فظل ينعق ويسب ويلعن بالقول الجارح واللفظ البذىء ، وصبروا عليه طويلا . ولما لم يبق فى قوس الصبر منزع هددوه بالضرب إن لم يرتدع ، ولكنه تمادى فى غيه ، ولم يحفل بأحد . فتقدم إليه شاب وسيم الطلعة ، مفتول العضلات ، قوى البدن ثم جذبه جذبة شديدة ، أخرجه بها من بين الصفوف ، وما زال متعلقا بأهدابه ، معطلا لكل حركاته ، حتى تواريا عن الأنظار ، ثم لحق بنا ذلك الشاب منفردا ، ولم أجد ذلك السكير حتى وصلنا المقابر .

ولا حديث للناس إلا سماجة هذا الرجل ، الذى لم يرع حرمة الموت .
واشترك فى قافلة من قوافله وهو على ما ترى فاقد الرشد . ومن سوء الطالع أن ظهر فى تلك الساعة وما حركات السكارى بغائبة عنك .

إن الرجل لا أعرفه ، ويخيل إلى أننى لم أره من قبل . وقد مضى على حادثته زمن طويل ، وربما كان طيب القلب فى الوقت الذى لا يتناول فيه ما أضعف عقله ، ولكن هى الخمر مصدر كل شر ، ومرجع كل بلوى ، وأس الجرائم ، وبسببها يهان الانسان ويحتقر إذ يكون كالمجنون أو أشد ، فهل يقدر الناس أضرارها فيحجمون عنها ، ويعدلون عن تعاطيها ، ليسيروا فى الطريق القويم ، فلا يصيبهم ضر ، ولا يسيئون إلى أحد ولا يمتهنون كرامة الراحلين ، ولا ينغصون الظاعنين والمقيمين .

أصحاب الاعمال

ما لهم يختالون على الناس ويأخذون عمالهم بشيء من الغلظة والقسوة ، ويرهقونهم إلى حد لا يطيقونه ، كأن الرزق مقصور عليهم وحدهم ، ولم يدركوا سر الرحمة وقد خلت أفئدتهم من الحنان الأنسانى ، والعطف السامى الذى يجب أن يكون شعارا للآدميين .

وما لهم يتحكمون فى الرقاب، ويفرضون العقوبات بالخصم أو الاهانة لذنب أو لغير ذنب ، والعامل المسكين يتقبل الضيم وهو صاغر ، لاتصال أسباب عيشه بهم ولأن الأزمة بلغت نهايتها ، وهو يخشى إن أظهر شجاعة أدبية أو معارضة فى هذا الظلم البين ، يقعد به حظه النكد عن وجود عمل آخر ، يستعين به على القيام بشئون رهطه .

وكيف تسوغ لهم نفوسهم أن يستحلوا جهوده ، فى حين أنهم يكدسون الذهب والفضة ، فيضنون عليه بالأجر الزهيد ، ولهم فى كل مناسبة سعى إلى التخفيض ، حتى أصبح لا يجد قوته اليومى ، مع أنه يكدح فى النهار وفى الليل ، وإن عارض يتقرر فصله ، لأن له من الرصفاء من يتمنى أن يحل محله بأقل مما يتقاضاه كثيرا ، بل ان منهم من يترددون على هؤلاء يقدمون قواهم العقلية والبدنية بأبخس الأثمان .

وأسهل شيء لديهم اذا استاءوا من عامل أن يأمروه بالانقطاع ، تأديبا

له ، وليرهبوا غيره . والانسان اذا لم يكن آمنا على نفسه من هذه النـاحية فلن يستقيم حاله ولن تنتظم أموره . وإن طرده على هذا الشكل يعرضه لأبشع الأخطار وأسوأ النتائج . ونود أن ينظر هؤلاء الى مستقبله نظرة صائبة لا أثر للانفعال فيها .

. وهم لا يقربون منهم الأكفاء العاملين ، وإنما الذين يتملقونهم ويمدحونهم بما ليس فيهم ، ويبلغونهم بالحق وبالباطل شيئا عن زملائهم ، فكأنهم بهذا يشجعون على النميمة ، ويسيئون الى المخلصين عن جهالة ، ويفضلون المقصرين على النوابغ . وقد دلتنا تجاريبنا على أن الذين يتلمسون السقطات لأخوانهم ، للتبليغ عنها انما يلجأون الى هذا كوسيلة لأخفاء ضعفهم . وفى اعتقادى أن الأعمال تنهار لو سار أصحابها على هذه السنة ، اذ يتجهون فى غير مجرى طبعى ، وهو البقاء لغير الأصلح .

ومنهم من يأكل مال الأجير بالباطل ، وكلما طالبهم ماطلوه وسوفوا فى الدفع حتى يمل ، ويترك أمره الى الله . وما وجدنا شخصا من هؤلاء عرف عنه ذلك ، واستمر مصنعه أو دام متجره . ذلك لأن العمال هم المحور الذى يدور عليه النجاح ، فان حبست عنهم أرزاقهم ، أو أهمل شأنهم ، قل وفاؤهم ، وعندئذ يحل الكساد محل الرواج ، والتبعة كلها تقع على رأس المرجع الأول للعمل .

ومن أغرب ماأرويه لك أن بعضا منهم يغش الناس فقد يتفق على سلعة ما ، ثم يقدم لك أقل منها أو أرخص ليستفيد ماديا ، وإذا انكشف الأمر بعدئذ قلت الثقة ، وهى كل مايجب أن يملكه فرد يستمد ربحه من علاقاته بالجمهور . وقلما وجد واحد من هؤلاء خفى غشه أو استتر أمره .

ومن أصحاب الأعمال من يدفعهم الجشع إلى الاتفاق مع جملة من أرباب

المصالح فى وقت واحد ، على أن يقدموا ما التزموا به فى موعد مضروب ، فلما كثر العمل عجزوا عن تنفيذ كل شيء وعطلوا على الجميع أشياءهم . ومن حسن السمعة عدم خلف المواعيد وإلا كان غيرهم أحق بالعمل وأحرى بالاقبال والتقدير .

ولو أن صاحب العمل لاينفق المال على نفسه عن سعة ماارتبك ولا عجز عن المضى فى سبيله ، والواجب يقضى أن يخصص لشخصه جزءاً للانفاق فى دائرة ربحه . وياحبذا لو انتبه إلى نفسه وحافظ على ثروته ، ونماها على توالى الايام ، فأنه بذلك يثبت مركزه ، ويقوى مكانته ، ويعد لعمله مستقبلا زاهرا .

وهنا لك فريق يعمدون إلى شراء سلعهم ، ويكتبون بثمنها صكوكا تدفع بعد آجال معينة ، ليزداد مقدار المال الذى يستخدم فى أعمالهم . ورأيى إن لهذه الطريقة أخطارا كثيرة تربو على مزاياها ، فقد تهبط الاسعار ، وقد يقل البيع والشراء ، وعندئذ إذا حل موعد الدفع وعجز صاحب العمل عن السداد لايرحمه أحد ، ويعرض نفسه للافلاس ، أو يرغم على عرض سلعته بالخسارة لينجو من المأزق الحرج الذى وقع فيه ، وإذا تكررت هذه المسألة مرة بعد أخرى ضاع ماله وعظم دينه شيئا فشيئا إلى أن يصبح من البائسين العاجزين .

والمنافسة الدنيئة ، لاخير فيها ولاثمرة ، فلا معنى لهدم الغير بطرق غير مشروعة ويجب أن يحيى الجميع ، وإنما المنافسة الشريفة هى التى يجب أن تكون موضع عناية ، وهى تعتمد على الأمانة والاتقان وضبط المواعيد ، ووضع كل شيء فى موضعه والاجتهاد فى التفوق على الأقران وجودة الانواع والاشياء المتعلقة به ، وبها تقدر الحياة السعيدة ، ولاينبغى الانقطاع

عن العمل حتى يشعر الجميع بيقظة صاحبه فلا يتطرق الوهن إليه لأعماله ، وليس من الضرورى نقد العامل بغير حق لتشعره بعظمتك وعلمك ، فأن ذلك يقلل من همته ونشاطه ، ويجعله إلى التراخى أقرب ، ولاتعتقد أن مدحك للمجيدين يدعوهم إلى التمرد ، وإنما هذا المدح يشجعهم على التفانى فى خدمتك والسير على هذه الوتيرة المرضية .

وبجمل القول نريد من أصحاب الأعمال أن يكونوا من طائفة المتعلمين الذين يستطيعون فهم مايحيط بهم ،وما يضرهم وماينفعهم ،ويمكنهم أن يدركوا سر الخطر إذا أحدق بهم فيبتعدوا عنه ،وهم وحدهم أعلم بتقلبات الأسواق وتحين الفرص . ونريد منهم عطفا على العمال وعدم إرهاقهم بتاتا ، واعتبارهم من المعاونين لا العبيد المسخرين ، وأن يسيروا فى حياتهم باعتدال فذلك خير لهم وأبقى

وحى الفن

إن النبوغ قاصر على طائفة معينة، امتازت بالجد والإتقان وسمو الخيال، والإتيان بما لم يستطعه سواهم. وقد حفظ التاريخ فى سجله لأمثال هؤلاء شهرة فائقة. وقد علمت الشىء الكثير عن الشعراء النابهين والمصورين الماهرين والموسيقيين المبدعين، إلى غير هؤلاء من الفنانين الذائعى الصيت.

ويظهر أن النبوغ على هذا الأساس فطرى، ويصل الإنسان إلى درجة محمودة فيه، إذا تعهد استعداده الطبعى بالرعاية. ومن الناس من يحاول أن يجعل نفسه رساما ماهرا، أو شاعرا بليغا أو كاتبا ضليعا، فيجد أن ذلك لا يتأتى له، إلا اذا وجد من نفسه ميلا داخليا يدفعه على ذلك ويغريه على ملازمة الفن الجميل الذى أولع به.

ومن الخطأ البين أن يقتل الآباء هذه الميول بمحاربتهم لها، إذ يرغمون أبناءهم على نوع من التربية، اختاروه هم دون مراعاتهم لهذه الميول. وهم بذلك يقاومون نجاح أبنائهم من حيث لا يشعرون، ولو أنهم لم يعوقوا هذه الميول عن السير فى طريقها السليم لنمت وأتت بالثمرات الجليلة، وأصبح هؤلاء الأبناء متفوقين على غيرهم منتجين إنتاجا عقليا لا يستهان به.

إن العلوم المدرسية كثيرة وتوزيع الوقت عليها جميعها يشعرنا بأن ما خصص لكل منها ضئيل، وعندئذ يقل النبوغ فى كل منها على انفراد

ولا شك فى أن تخصيص معظم الوقت لما أجد نفسى مدفوعا الى إجادته أجدى علىّ من وجهة الانتاج ، من توزيع القوى العقلية على هذا وذاك

ولذلك اذا ظهرت هذه الاستعدادات وجب تنميتها ، لأن الأمور الغرزية تقوى بالمران ، كما أشار الى ذلك علماء النفس فى كثير من بحوثهم وبخاصة لأن لها أوقاتا تتجلى فيها ، فاذا أهملت خبتت وضعفت ، وكان الانتاج الفنى ضعيفا .

وليس بغريب إذن أن انقطاع الرسام مثلا عن المران على الأشكال المختلفة يفقده شيئا من السرعة والمهارة . والتكرار من شأنه يسهل على الانسان مزاولة عمله ، ويمنع عنه كثرة التفكير فيه .

وللمرء ساعات تتجلى فيها عاطفته نحو فنه ، فيجب اقتناص الفرص فيها ، حتى يعظم الانتاج ويكثر النفع . وقد قص علينا بعض الشعراء المجيدين أنهم حاولوا الاتيان بما يعادل ما جادت به قرائحهم من قبل فوجدوا أنفسهم كأنهم من العاجزين .

ولبعضهم طرائق خاصة كالجلوس فى مكان هادئ أو مكان تكثر فيه المناظر الطبعية كالماء الجارى أو الحقول النضرة أو البساتين المملوءة بالأزهار الجميلة ، ومنهم من لا يستطيع الاجادة إلا اذا أملى غيره أو رفع صوته أو كان يمر فى غرفته جيئة وذهابا عند تدوين مذكراته وكتابة مقالاته .

وإن منهم من يطيل التفكير عند رسم خطة معينة لها علاقة بالفن ، على أن التردد فى هذه الحالة يضيع الوقت سدى ، ويوجد لدى الفنان قلقا وضجرا يباعدان بينه وبين الجودة فى كثير من الأحيان

وأول صفة يجب أن يتحلى بها الفنان هى الصبر حتى يتغلب على كل عقبة تعترضه ، وإذا لازمه اليأس فانه لا ينجح أصلا ، وإنما إذا صادفه الفشل

مرة وجب عليه أن يحاول ثانيا وثالثا ، حتى لا يكون فى عداد العاجزين المقصرين. وكم من الزمن يقطع المخترع لتحقيق الدقة والصواب فى اختراعه، وكم من الفروض فرضت وتركت وحل محلها غيرها للوصول الى الغرض الصحيح ، وبذلك تمكن الباحثون والعلماء من كشف الأسرار الكونية وتذليل قوى الطبيعة، وتسخيرها لمصلحة البشر فى مشارق الأرض ومغاربها.

ووقوف الفنان عند حد لا يتعداه ، لايجعل له إرتفاع قدر ولا بعد صيت . والواجب عليه أن يزيد فى البحث والتنقيب، والاتصال بما ينتسب إلى سواه، حتى يضيف الى تجاريبه تجاريب غيره، وبمقدار الزمن الذى يمضيه الفنان فى مزاولة فنه تكون القدرة على حسن الأبداع والمهارة فى الابتكار .

وإذا فرضنا أنك صرت ذا مكانة فنية جيدة ولم تكن مخلصا انحدرت الى درجة أقل ، فأن العمل عن إخلاص من شأنه تدارك العيوب وتلافيها ، ومن شأنه أيضا النمو المطرد ، والانتقال من حالة إلى حالة أسمى ، وهذا جل ما يتمناه ذو الفكر الراجح والعقل السليم.

ومن الوسائل الضرورية فى هذا الباب القدرة العلمية ، لأن كل شىء له اصول وقواعد ، لا يلم بها إلا العلماء، فاذا أضفت الى ميلك الطبعى وانتباهك وإخلاصك الأحاطة بما يفيدك مما دونه أولو الرأى العلمى ، اجتمعت لديك أقوى الأشياء فى توجيه جهودك الى النظام والطريق الذى يؤمن معه العثار فى الغالب .

وأعتقد أن إقبال الجمهور على تشجيع الفنيين على اختلاف نزعاتهم ، يوحى اليهم الاستمرار فيما خصصوا أنفسهم له، ولا يقعدهم عن المواصلة ، ولا يعوقهم عن تعطيل قواهم الفكرية ، فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى يقظتهم ، وإظهار عبقرية كامنة.

ومما تقدم تستنبط أن وحي الفن مبعثه استعداد فطرى أو ميل نفسى ، ينمو بالمران وحصر الانتباه ، وعدم الانقطاع عنه بحال ، والصبر وعدم تسرب اليأس إلى فؤاد من يريد أن يكون من أعوانه ، على أن يكون لأخلاص رائده فى كل حركاته وسكناته ، ومما يساعد على الابتكار والابتداع غزارة الاطلاع ، والاتصال الدائم بما ينتجه الغير ممن عرفوا بالأجادة وسمو القدر فيما له علاقه بما نبحث فيه الآن . وفوق ذلك لا يعلو الفن بأدق معانى الكلمة إلا اذا صادف إقبالا وتقديرا وتشجيعا .

الرسالة المصطنعة

هو فى بسطة من الرزق لاحد لها وضياعة كثيرة وأمواله لاتعد إلا بشق النفس ·

وهو ريفى لاترضيه التطورات الجديدة ، ولا تعجبه النزعة الأخيرة التى تراها عادة فى الأمصار بين طبقات المتعلمين وغير المتعلمين ، بل هو يغالى فى رجعيته إلى درجة لايمكنك أن تجد لها نظيرا الا فى القليل النادر

أوامره قاسية ، وآراؤه نافذة ، ويرهبه الجميع، ولا يمكن لأحد من ذويه أن يخرج عن طاعته ، لأنه عصبى المزاج بقيم الدنيا ويقعدها لأتفه الأسباب وأبسط الأمور ، ولكنه كريم ، فى ماله حق للسائل والمحروم ، وقد أجرى بعض المرتبات على عائلات أخنى الدهر عليها ، وموائده ممدودة للفقراء والمساكين وأبناء السبيل ·

وهو أسد فى داره لاتخفى عليه خافية من شئون أتباعه ، وهو لايؤمن بالاختلاط الجنسى ، فلا يسمح لأحد من أقاربه أو من أبناء أصهاره ، بدخول منزله فى غيبته أو رؤية زوجته أو التحدث إلى بناته ، مهما كان نوع القرابة، حتى صار موضع نقد الجميع ومحل دهشة واستغراب ، لأنك لاترى فى الجيل الحاضر من يحفل بهذا أو يوافقه على هذا الرأى ·

وله زوجة صالحة تعد مضرب الأمثال فى الخلق الطيب والشرف العظيم ، ولم يرزق منها إلا بنتا واحدة كانت لهما موضع سلوى ، وقنعا بها ، واعتنيا بتربيتها عناية كافية ، وصرفا كل جهودهما لأعدادها إعدادا طيبا ·

واقتضت ظروف تعليمها أن انتقل الرجل وزوجه إلى مصر من الأمصار، ليدخلها إحدى المدارس، ولتكون محل عنايته على الدام. وقلده فى ذلك أخ له عرف بالدناءة والانحطاط، ولازمه كظله ليأخذ ابنته لابنه حتى تؤول اليه ثروة أخيه وهي كما قدمنا لايستهان بها .

ويظهر أن المنزل الجديد الذى أقام فيه هذا الثرى كان مجاورا لمنزل نظير من نظرائه مكافىء له فى الثروة والجاه، وله ابن يدعى جميل، عرف بجده واستقامته، وانصرافه الى دروسه، فخالف بذلك كثيرا من أبناء الأثرياء .

وإنا لاندرى كيف شغفت به إحسان وكيف أحبها ذلك الفتى، ويخيل إلى أن أفعل الوسائل وأقواها فى اجتذاب القلوب السامية، ترجع الى الخلق المحمود، وحسن السمعة والتفوق على الأقران، والظهور بمظهر لاضعة فيه ولاضعف ولا وهن، وبذلك نفذت الى قلبه، ووطدت النفس على إحلاله محلا يشعرنا بتقديرها له وحبها إياه .

وحاول ابن عمها أن يتودد اليها مستعينا فى ذلك بقرابته فلم يستطع الى ذلك سبيلا، لأن والدها لم يسمح له بمخاطبتها على انفراد، أو رؤيته لها فى منزله، ولأن فى صفاته مغامز تنفر منه الآنسات، هذا فضلا عن كونه مستهترا لايدارى عيوبه ولايخفى فجوره .

وصار ينتظرها قبيل مدرستها ليشرح لها بعض آلامه الغرامية الوهمية ليستعطفها، ولكنها لم تسأل عن ادعاءاته، ودلها مظهره على خبث نيته، كما وجدت فى ألفاظه وسلوكه مارابها فيه، ولم تجد وسيلة إلى إبعاده إلا إخبار أبيها عن بعض شأنه، وهو كما قدمنا أسد يغضبه أتفه الأشياء فما بالك إذا سمع أن ابن أخيه يعترض ابنته فى طريقها، ويتحدث إليها فى أمر يؤلمه

ولا يرتضى التحدث فيه بالمرة .

وصدر أمره الى أخيه بردع ابنه عن غيه ، وإلا منع عنه القدر المالى الذى يتبرع به له شهريا ، بعد أن فقد ثروته فى الغواية والضلال . ولذلك لم تعد لتراه معترضا لها ، أو واقفا لها بالمرصاد فى طريقها لمضايقتها .

والأقرباء أحق بالعطف والرعاية وأولى بالميل والتقدير ، ولكن سوء الخلق من شأنه إضعاف الحنان والشفقة ، وكيف نرحم من لا يرحم نفسه ولا تؤثر فيه عظات الدهر وعبره ؟

وانتهى جميل من عهد الدراسة ، وجاء دور الزواج فعرض على أبيه أن يختار له إحسان ، ولم يعارض والده فى ذلك ، وجاء دور أبيها فلم يمانع . وبينما كان جميل يمنى النفس بقرب امتلاك يدها ، إذا بالحمام يمضى بأمها ، وبعد شهر أو بعض شهر مضى بأبيها ، فتركت تحت رحمة عمها الذى عين وصيا عليها .

وحاول عمها إبراهيم عبثا أن تختار ابنه حسنى ، الذى صار يتظاهر أمامها بالاقلاع عن الماضى ، بدلا من جميل، ولكنها لم تسأل عنه . وكانت دائبة الاكتئاب لفقد أبيها وأمها وخوفها ، من ضياع ثروتها على يد ذلك العم الأثيم .

٢

مر جميل أمام بيتها يوما فنادته ، وأمرته أن ينتظرها حتى تحدثه فى شأن هام ، فوقف والحياء يلازمه .

ولما نزلت إليه قالت له ، علمت من عمى ، أنه ينوى نقلنا الى القرية ، لأنه ليس من ضرورة الى بقائنا هنا ، وإن حركاته تدلنى على أنه ينوى الغدر بى ، وهو يسعى للتفريق بيننا ، فما ضمنا مجلس إلا ووجدت منه حملة

عليك . ويخيل إلىّ أننا اذا سوفنا فى موضوعنا ، ضاع أملنا وحكم علينا بالفراق الأبدى .

ولا لزوم يا سيدى بأن تراسلنى ، فأنى أخشى أن تقع فى أيديهم رسالة من رسائلك ، فينالنى ألم لهذا السبب .

وهى تحاوره أقبل عمها نحوهما فانصرف جميل تأدبا

ثم قال لها عمها

— ألم أقل لك ألف مرة أن هذا الشاب قد تغيرت أخلاقه وأصبح موضع ازدراء من الجميع

— لا أظن ذلك

— لقد وجد بالأمس سكيرا ، وكادوا يأخذونه الى المخفر ، لولا شفاعة بعض الناس فيه .

— ماعهدنا عليه من سوء

— كأنى بك لا تصدقين إلا ببرهان عملى .

— قد يكون ذلك

فأخرج لها من جيبه رسالة بأمضائه تنص على أنه يتقدم إلى طلب يد سواها، وتفرست فى الأمضاء فوجدتها كالتى اعتادت رؤيتها فى الرسائل المرسلة منه اليها ، فوجمت ولم تنبس ببنت شفة .

فقال لها لا تصدقى أولئك الفتيان ، فقلوبهم متقلبة .

ثم أخذ يدها ، وأصعدها الى الطابق الثانى ، وصار يلاطفها فى الحديث، وتركها لتستريح .

عادت الفتاة الى غرفتها وهى فى شك مما قيل لها عن جميل ، ولكن الرسالة التى قدمها لها الوصى عليها جعلتها فى ريبة منه، وساورتها الهموم والأحزان . ثم قامت من مكانها وذهبت الى مضجعها لتنام ، ولكن الكرى ابتعد عن معاقد أجفانها فلم تذق للنوم طعما . وأضاءت النور ولبثت تقلب أوراقها وكتبها ، إلى أن وقع بصرها على رسالة منه اليها تتـــدفق حكمة وعواطف سامية ، فقرأتها ، ثم سائلت نفسها أمن كانت هذه عباراته وتلك كلماته يتشرب المبادىء السافلة ويخوننى ؟ - لا أظن ذلك قط ، ولعلها مكيدة مدبرة ضده أو أنهم ينوون إبعادى عنه لغاية فى نفوسهم . وسبحت فى عالم الخيال وكاد يقتلها الحزن والغـــم ، لأنه ليس أضر على الفتيات من اعتقادهن غش من وضعن قلوبهن فى أيديهم وعقدن الخناصر على جعلهم الأمل الوحيد فى مستقبلهن .

وبينا هى فى همومها وأكدارها دخل عليها عمها والدم يسيل من وجهه ومن رأسه بشكل فظيع فلما رأته اضطربت وقالت له

— ماذا أصابك ؟

— ألم أقل لك أن هذا الفتى شرير، فأن الذى ترينه الآن نتيجة من نتائج استبداده ورعونته .

— وكيف ذلك ؟

— لحقنى منه الأذى ما ألحقه بغيرى .

— ومالك وله ؟

— كنت مارا فى الطريق يصـــحبنى حسنى فسمعنا جلبة وضوضاء فى إحدى الحانات ، فتريثنا لنستطلع الخبر، واذا به قدخرج من تلك الحانة وبيده مدية وهو يتمايل ذات اليمين وذات اليسار طاعنا بها كل من صادفه .

— ولكنك مصاب في عدة مواضع ، وهذا دليل على أنه طعنك جملة طعنات .

— لقد أرغمت على أن أدافع عن نفسي لدرء خطره ، غير أن السكر هيأ له أنه في ميدان حرب ففعل معي ما تشاهدين .

— حقا أنه أصبح جبانا بمعنى الكلمة ، وبما أنه وصل إلى هذه الدرجة من الانحطاط فسأقطع ذات بيني وبينه ، لأن من لا يخشى سلطة القانون ، لا أمل في تقويم اعوجاجه ، ولا أمان له على الاطلاق .

ثم غسلت الدم الذي سال منه وعصبت جبينه بخرقة بيضاء ، وأوصلته الى سريره ليستريح من شدة ما كابده من العناء .

* * *

والحقيقة أن القصة التي قصها عليها ملفقة من أولها الى آخرها ، وصوابها أنه جمع قرناءه وذهب بهم الى المكان الذي به جميل ، حيث أرشدهم اليه حسني وغرهم أن القوم في سكر ، وأن في مقدورهم القضاء عليهم ، وتناسوا أن أخصامهم ذوو بأس شديد وعلى جانب عظيم من القوة

ولقد هجم بهم على جميل ورفقائه على حين غرة فانبرى لهم ذلك الفتى وأوسعهم ضربا مبرحا ، وصار يحمل الواحد منهم ويلقيه على الأرض فيرد عظامه حتى تملكهم الهلع ، وتبودلت الضربات بينهما بشدة ، ولما يئس ابراهيم من التغلب عليه أشار الى حسني وسط المعمعة على أن ينسحبا ثم يأتيا خلفه ، وإذ شعر بدنوهما منه صب عليهما جام غضبه ، وأثخنهما بالجراح ووقعت الهزيمة على رءوس عمها وأعوانه ففروا وهم على حالة مشعثة ، تعلوهم الخيبة ، ولكي ينتقم حسني لنفسه أطفأ النور أثناء خروجه ، لكي تستمر المشاجرة بين خصومه وحدهم ، وقد حدث ماوطد

العزم عليه ، فأنهم لبثوا يتضاربون ويتلاكمون ، إلى أن فطن جميل إلى قلة الأفراد ، فصاح أضيئوا المصابيح ، وعند ما ظهر لهم خلو المكان أغرقوا فى الضحك واعتبروا الحادث فكاهة

٣

ما كان جميل سكيرا ولا من المدمنين على شرب الخمر ، بل يعتبر تعاطى المسكرات رذيلة ممقوتة ، غير أنه كان يجارى إخوانه فى الجلوس معهم ، أينما حلوا وحيثما رحلوا ، ولعل له عذرا فى ذلك فأنه يخشى أن يعتدى فرد من الذين يناصبونه العداء على صديق له ، ولطالما نفعوه فى أوقات الشدة فكان حقا عليه ألا يغفل عنهم هنيهة

ودع إخوانه وانصرف الى بيته فنام نوما هادئا مغتبطا بانتصاره ، وفى صباح اليوم التالى امتطى صهوة جواده يريد الذهاب الى تفقد مزارعه · وقبل رحيله خطر له ان يزور إحسان ليتزود منها بنظرة من نظراتها الصادقة، وتذكر السويعات الجميلة التى قضاها معها فى صفاء بال ، منتهجين نهج الشرف والعفاف فاتخذ بيتها قبلته ويمم صوبه

ورأته من شرفة بيتها فأعرضت عنه ، إلا أنها كانت فى ذهول لاتعى ماتقول ، ولاتدرى بأى وسيلة تباغته ، بتلك المقابلة الجافة التى ستبدأه بها عند مثوله بين يديها .

أما جميل فقد ترجل وترك الجواد مربوطا عند باب المنزل وصعد درجه، إلى أن وصل اليها فوجدها صامتة لا تنبس ببنت شفة · وأقبل نحوها يحييها بقوله

ـ عمى صباحا أيتها العزيزة المحترمة .

فلم تحر جوابا سوى أن رشقته بنظرة حادة اخترقت أعماق قلبه وشعر

منها أن فى الأمر شيئا فأعاد الكرة قائلا :

ـ ماالذى يعكر صفو سيدتى ، وما الذى يشغل بالها ،وما هو المعنى من تلك النظرة التى ماتعودتها من قبل ؟

ـ يعكر صفوى أن أراك بجانبى ، ويشغل بالى أيام مضت كنت واهمة فيها أنك من الصالحين أنقياء السرائر ، والمعنى الذى تستفسر عنه أمر بأن تغادر منزلى على الفور ،ولا أود أن أراك فيمرة أخرى .

فوقعت هذه العبارات على قلبه وقع الصاعقة ، لأنه لم يتعود سماعها قبل هذا فتلقاها وكأنه فى حلم أو أن التى تحاوره ليست هى التى قاسمته الحب وشاطرته الوداد، فهم بالخروج شأن الأبى الذى لا يقبل الضيم ،ولا يحتمل الأهانة ، إلا أنه تلمس الباب فعمى بصره عن رؤيته ، فجمد فى موضعه، وكأنه فى حاجة لمن يأخذ بيده فيرشده الى الجهة التى يخرج منها .

وساد السكون برهة ثم قال لها

ـ أنا لاأعلم السبب الذى حمل سيدتى على اتخاذ هذه المعاملة القاسية بالنسبة لى ، فهل لها أن تشرح لى ماجعلها تنفر منى وتطردنى من حضرتها كما تطرد الكلاب ؟

ـ لا أريد جدالا ولا أرغب فى أن أزيد لفظا واحداً

ـ نعم إنك صاحبة هذه الدار ولك وحدك حق التصرف فيها ، وخذى على عهداً ألا أطأ أرضها بقدمى مادمت حيا ، ولكن أرجو أن أكون على بصيرة من علة هذه المقاطعة قبل وداعك الوداع الأخير .

ـ عجباً ! . ألا تريد أن تخرج ؟

ـ هو ذا ماتشاءين ، ولكن أمحضك النصح فأنك ساذجة جدا ، حتى تمكن واش لئيم أن يصور لك الحبة قبة ، وأن يثير غضبك من جرتى ، فهدمت

فى دقيقة واحدة مابنيناه فى أعوام ، على أن التحرى عن الحقائق أمر نراه من اللزوميات ، والتريث فى الأمور من أقدس الواجبات ، والتبصر فى العواقب خير وسيلة للنجاة ،والشخص الذى تقعده كلمة وتهيجه أخرى لاثبات له ، بل لايعد فى زمرة العقلاء ، والفتاة التى لاتزن القول بمسبار الفطنة ومعيار الذكاء تضيع كما يضيع اليتيم على موائد اللؤماء .

واعتقدى تمام الاعتقاد أنى لا أطلب ذلك أملا فى استعطافك ،أو رغبة فى أن تتناسى ما علق بذهنك من جهتى ، فسوف لا ترينى . بل سأسدل حجابا كثيفا بينى وبينك . وأحذرك من المرء الذى أفضى إليك بتلك الوشاية . ومع ذلك فأنت حرة فى قبول كلماتى أو فى نبذها نبذ النواة وأستودعك الله إلى يوم يبعثون .

فوضح لها من طيات حديثه طهارة ذيله ، وأنها مخطئة فى طرده على تلك الصورة الشنيعة ، فاستوقفته والدموع تنحدر من مآقيها ، إلا أن مبادأتها إياه بالعدوان ، جعلته يحتفظ بكرامته ، وقبل خروجه قالت له

— أما كنت بالأمس فى إحدى الحانات ؟

— نعم

— أما كنت السبب فى جرح عمى وابنه .

— بلا ريب

وعند ذلك خرج عمها من مكمنه وكان مختبئا وراء الباب ، إذ خشى افتضاح أمره ، أو يجرهما الحديث الى عتاب فنسيان ما حدث ، وكان فى قبضة يده سكين صوبها إلى صدره ، وأمره بالخروج وإلا ضربه بها .

فقال جميل : - هل هذا كل ما استطعته ؟

— أخرج وكفى .

ثق أن فى الامكان تجريدك منها وأنت أدرى

- لقد أنذرتك فأن مكثت هنا دقيقة واحدة أزهقت روحك قبل أن يرتد إليك طرفك .

فترك الدار لا خوفا منه ولا إذعانا لأمره ، بل منعا من أن تأخذه الحمية فينقض عليه كما ينقض الأسد على فريسته ، ويحدث منه ما لا يرضاه أمامها وهو يخشى أن يصيبها مكروه ، إن شهدت عراكهما ، وفضل أن يكون مغلوبا على أمره محافظة عليها . ثم خرج وركب جواده وأطلق له العنان ، وفى أثناء ذلك كانت إحسان تشيعه بنظراتها حتى توارى عنها

٤

كان الجو صحوا والسماء صافية الأديم ، والشمس ساطعة تبعث فى النفوس النشاط ، والتريض فى ذلك اليوم أمرا مستحسنا غير أن استياء جميل الشديد ، من مقابلتها له على تلك الحالة التى مرت بالقارىء الكريم جعلته فى دهشة . وبخاصة لأنه لا يعلم السبب الذى حملها على معاداته ، ونسيان ولائه ، فساق الجواد على غير هدى إلى أن صار خارج المدينة ، ونظر ما حوله فلم يجد أثراً لانسان . ثم نزل عن جواده وربطه فى شجرة على مقربة من مجرى النيل ، وتربع على الأرض يمتع نفسه بمناظر الطبيعة الجميلة غير حاسب لما يضمره له ابراهيم من السوء أدنى حساب ، ولم يخطر بباله ما يعده لاغتيال حياته .

وشرع الفتى فى محاسبة نفسه لعله صدر منه بالنسبة لها ما نفرها منه ، فلم يجد فى مخيلته جرما ، يستحق ذلك العقاب الصارم ، فلم يفش لأحد سرا من أسرارها ، ولم يقترف إثما ولا ذنبا ، ولم يكاشفها بنقيصة فى أى لحظة من اللحظات ، ولا تطلع إلى سواها ، وظل كذلك دون أن يهتدى إلى فكرة

صائبة فى تعليل وقفتها الأخيرة ، وطردها إياه ، وفيما هو فى حدسه وتخمينه إذ طرأ على ذاكرته وقفة ابراهيم وتهديده له ، فأدرك أن هذا الرجل هو الذى أغراها على ذلك ، وربما يكون قد لفق لها أكذوبة لوقوع الشقاق بينهما .

واستعرض الشجار الذى حدث بينه وبين خصومه فتألم لهذا الموقف وقال فى نفسه

إن هذا التصرف الذى بدا منا لا يليق بكرامة أبناء علية القوم ، والشغب من صفات الرعاع ، وما ذا كنا نصنع لو داهمنا رجال الأمن وساقونا إلى المحاكمة .

الحق إنه من المعيب جدا الاختلاف إلى الحانات ، وقيام المنازعات على هذا الشكل المزرى ، وللقانون حماة يجب أن يبلغوا كل شىء ، حتى تسير الأمور فى مجراها الطبعى ، ولا يعتدى قوى على ضعيف ، ولكن ما كنت إلا مدافعا عن نفسى ، فأن أعوان ذلك الشرير تعقبنى أينما توجهت ، وطالما حاولوا اغتيال حياتى ، وفى كل مرة يقدر الله لى السلامة ، وكان الأجدر بى ألا أعفو عنهم. غير أن اعتقادى أن هذه النقائص مصدرها ابراهيم ، وصلته باحسان لا يمكن إغفالها هو الذى حملنى على السكوت لاسيما وأنى لا أريد إيلامها ولو كان فى ذلك ضياع حياتى

قبح الله الحب فأنه أذلنى ، وجمانى طريد قوم لاخلاق لهم ، وعرضنى لتبعات أقل شىء فيها يودى بى إلى السجون أو سكنى الرمس ، وانتهى الموقف بخروجى من عندها ذليلا حقيرا .

هى شريفة لاتخضع لسلطان أحد ، ووفية لاتحفل بالترهات والوشايات ولعلها استفظعت عملى لاعتدائى على عمها وما كنت بادئاً له بالعدوان. وماشجعنى على ذلك إلا بغضها له وشكايتها منه مرارا

ولحا الله المال فما اندفع وراء هذه النقائص والتدبيرات السخيفة إلا ليكون

له من وراثها مغنم فيزوجها لابنه، وعندئذ يتحكمان فى ثروتها ، ولو اعتقدت أن ابن عمها يكافئها علما وأدبا ، ويجلب لها السعادة ، لأفسحت له الطريق وماجلنى على التمسك بها إلا احتفاظى براحتها ورغبتى فى منع الضر عنها

ولكنها أساءت إلى وعاملتنى بقسوة ، وجرحت فؤادى ولم تتوان عن إهانتى كأنى ألد أعدائها . ويغلب على ظنى أن حيل إبراهيم نجحت فصفرت كفى منها . وهو ينظر إلى الماء إذ وجد دموعه تنهمر كالمطر الغزير ثم قال اللهم رفقا بى فأنى لست من الظالمين . ولم يلبث أن أخرج من جيبه قرطاسا وقلما وكتب لها الرسالة الآتية

عزيزتى إحسان

لقد كانت قسوتك لاتحتمل ومعاملتك شديدة ، وقد عودتنى عطفا وحنانا، وماسمعت منك قبل هذا لفظا جارحا أو عبارة مؤلمة

إن القلوب كقطع الزجاج إذا كسرت لايمكن رأبها ، ولاأطالبك بالمودة أو التمسك بى ، فلقد ارتضيت الموت بعد هذه الإهانة الشديدة

ويا أيها الحساد فى آفاق الأرض ، ابتعدوا عنى فقد أصبحت لغيرى وقد بادأتنى بالعدوان

ولا أذكرك بالماضى الجميل ، وإنما أنصحك ألا تصدرى حكما إلا بعدروية ، وثقى أننى لاأستدر عطفك ، وإن كنت لاأزال أشعر بتقديرك والوفاء لك .
وأرجو أن تكونى موفقة فى حياتك الجديدة ، سعيدة بما رسمت لنفسك من مستقبل وأستودعك الله يا جميل

وبعد أن وضع الخطاب فى الغلاف وجد أن الشمس قد أخذت فى المغيب ، فركب جواده ليمضى ليلته فى إحدى الضياع التى خلفها له أبوه ، وقبل أن يتحرك الجواد اندفع نحو الماء ليشرب ، وإذا بطلق نارى حدث على مقربة

منه فتطلع يمنة ويسرة ليعلم مصدره ، وإذا برجلين على ظهرى جوادين يعدوان نحوه ،ففهم أنهما يقصدان قتله ، ولما لم يكن معه مسدس لردهما على أعقابهما، همز الجواد وأطلق له العنان فنهب الأرض نهبا وهما فى أثره ،وكلما اقتربا منه أطلقا عليه عيار ناريا ، وكادا يصيباه لولا سرعة عدو مطيته ، ولاحت منه التفاتة فرأى مأوى أمينا فى منعطف الطريق فآوى إليه واستعد للقائهما حين دنوهما منه ،وترسما مواقع حوافر الجواد لأنه غاب عن بصريهما ، فلما صارت المسافة بينه وبينهما بضعة أشبار ، صرخ فى وجهيهما صرخه دوت فى المكان كدوى الرعد فى يوم عاصف ، وهجم على أحدهما وخطف الغدارة من يده ثم صوبها إلى صدريهما فذعرا وارتبكا وأمر الثانى بإلقاء غدارته على الأرض على جناح السرعة ففعل . وقد أخذ الخوف منهما كل مأخذ ، وكلفهما بخلع حذاءيهما وملابسهما الخارجية ، ولم يترك لهما سوى سروالهما وقميصيهما ثم قال .

— الآن يجب أن أعاملكما بالمعاملة التى رغبتما فى تنفيذها معى (والشر بالشر والبادىء أظلم)

فقالا فى نفس واحد

— رحماك يا سيدى رحماك

— إن الرحمة لأمثالكما تعد من أكبر الغلطات ولا بد من أن تلقيا جزاءكما عاجلا .

فلم يتركا عبارة من عبارات الاستعطاف إلا وفاها بها أمامه ،ليأسهما من سبل الدفاع ،وصمتا ينتظران أمره كما ينتظر المحكوم عليه بالأعدام إقبال جلاده ، فقال

— ما هو السبب الذى دفعكما لاغتيال حياتى ؟

فأجابه أحدهما إن قصصنا عليك حكاية من أغرانا تعف عنا

— إذا كان فى قولكما إفك وكذب فلا بد من إعدامكما

— نريد منك وعدا صريحا بالعفو عنا وإنا لا نخفى عنك خافية

— لكما ذلك

— قبل كل شيء نرجوك أن تحول الغدارة إلى جهة غير صدرينا

— لا يمكن أبدا حتى إذا ما وجدتكما تنحرفان قيد شعرة أخمد أنفاسكما

— إن الذى أغرانا على ذلك هو إبراهيم

— فهمت الآن ، وما هى الوسيلة التى ناط بكما القيام بها

— سلمنا غدارتين ومنحنا جوادين وجعل لنا مكافأة قدرها ١٠٠٠ جنيه إن وصلت أيدينا إلى إعدامك الحياة

— ومتى كان ذلك ؟

— فى صباح أمس الدابر

— وكيف عرفتما مكانى ؟

— لازمناك كظلك البارحة فلم تتح لنا فرصة وفى صباح اليوم صرنا وراءك عن كثب، فلما رأيناك منفردا خارج المدينة حدث ما أنت عالم بقيته

— ولكن ألا تعلمان أن إزهاق الروح البريئة أمر حرمته القوانين والشرائع

— وماذا نصنع والفقر قد داهمنا بخيله ورجله وسد علينا البؤس والفقر كل باب

— يمكنكما أن تلتمسا الرزق من طريق مشروع فذلك خير وأبقى

— ما كان أحوجنا إلى كلماتك الغالية قبل أن يزين لنا الشيطان ما وقعنا فيه وطمعنا فى حلمك كبير فاصفح عنا إننا كنا من الخاطئين

ـ قد عفوت عنكما فاذهبا

ـ نرجوك أن تسمح لنا بملابسنا ونكون لك من الشاكرين

ـ كلا

ـ نتوسل إليك بكرمك أن تعطينا إياها فلا يمكننا أن نمر فى الشوارع ونحن كما ترى

ـ يكفيكما أننى صفحت عنكما فاذهبا من أمامى

ولم يصدقا أن حياتهما ردت إليهما وغادراه ومضيا ، وعند ما سمع إبراهيم ما لقياه من جميل كاد يصعق وغشيه من الهم ما غشيه، وخشى العواقب الوخيمة التى تنجم عن ذلك ، خوفا من وقوع مسؤولية عليه إذا بلغ أمره إلى القضاء، أو يكون من الهالكين على يد ذلك الفتى السابق الذكر . وإنه لفى سكرة من فشله التام وإذا بابنه يحييه ثم يهون عليه بعض أمره ويطمئن خاطره بأنه سيجهز على جميل ، وأنه لايفلت من يده حتى ولو اتخذ نفقاً فى الأرض أو بنى له صرحا فى السماء منعزلا

٥

اجتمع ابراهيم بابنه فى أحد البساتين ودار بينهما الحديث الآتى :

ـ ألم أقل لك أنه لا يبلغ المحاكم شيئا مما كنت تخشاه

ـ قد يكون سكوته دليلا على ذلك ، ولكن ما يدريك أنه يجمع الحجج الدامغة لاتهامنا بسبق الأصرار على قتله والشروع فى ذلك فعلا

ـ لا تكن كثير الأوهام

وهبنا فى مأمن من ناحيته ولكن ألا تعتقد أن إحسان تهواه على الرغم من إهانتها إياه ، وأنه من السهل أن يتصالحا ، وهنالك تكون الطامة الكبرى

ـ لا تخش بأسا ولا رهقا فعندى سلاح التفرقة أشهره متى شئت

ـ عهدى بك ممن يحكمون أساليب الانتقام ولأنت أجدر من يقيلنى من عثرتى فهات ما وراءك

ـ إذا كان غرضك أن يزداد الخلف بينهما فهاك خطابا مزورا .

ـ ما فهمت لذلك معنى

ـ المسألة سهلة واضحة فذلك الخطاب كأنه مرسل منه إليها

ـ ما مضمونه ؟

ـ خذه واقرأه واحكم بعد ذلك على قيمة تأثيره

فتلاه فاذا فحواه ما يلى

إلى إحسان الشقية

ظننتك وفية فاذا بك دنيئة فقابلت حبي بعكسه ، ولذلك اخترت سواك فلا تفكرى فى مطلقا ؟ جميل

ثم قال لابنه وعليك أنت إتمام الباقى ، وغدا نجتمع للتدبر فى رمى آخر سهم من مجهودنا فى وجهه ، فودعه شاكراً وانطلق لملاقاة إحسان لتمثيل دوره الجديد فلما لاقاها قال لها

ـ لقد أحسنت صنعا فى طرده ، وكأنه يريد أن يقتص لنفسه منك قصاصا فظيعا

ـ ولم وأنا حرة فى بيتى أستقبل من أشاء وأرفض لقاء من أريد

ـ خذى فهذه رسالة منه اليك

ـ ومن أوصلها اليك ؟

ـ وجدتها ضمن الرسائل المرسلة إلينا اليوم

ـ وهل الخطاب بلا غلاف

ـ إذن قرأته قبل أن يصل إلى مع أنه معنون باسمى

ـ ظننته لى ولم أنتبه الى ذلك إلا بعد تلاوته

فلما قرأته ارتابت فى أمره ، وتفرست فى وجه الشاب لأنها اشتبهت فى الخط ، وقالت له لا تهتم بالأمر كثيراً ، وربما كتبها وهو تحت تأثير الخمر ، والدليل على ذلك أنه لم يؤرخها ومع كل فليست له صلة بى ، وليس فى رسالته ما يخيف أو يؤلم

فأخذ الرسالة فى يده وتركها ، مؤملا أن يزيد النار اشتعالا فى وقت آخر .

ولقد كانت تلك الرسالة المصطنعة هى الحل الوحيد الذى أخرجها من ظلمة حالكه إلى نور ساطع لأن الخط غير خطه وإن روعى فيه دقة التقليد .

وثقت تلك الفتاة بعمها ثقة عمياء ، فلما وصل إلى يدها ذلك الخطاب المزور فقهت كنه طبعه وأدركت سر ختله ومكره ، ورأت أن تراقبه حفظا على صديقها الصادق جميل وأن تبادر بفصله عن وصايته عليها بسرعة لأن بلوغها سن الرشد أصبح قريبا

وبعد ذلك بأسبوع رأت عمها وابنه قادمين ثم دخلا الحجرة التى فى الطابق الأدنى فنزلت بمنتهى الخفة لتستمع قولهما ، ومن حسن حظها لم ينتبها لها وأنصتت ، وإذا بابن عمها يتكلم بصوت خافت

ـ اليوم ينتهى كل شىء حسب رغائبك

ـ وكيف ؟

ـ قد أخبرت أن جميل فى هذه الساعة موجود فى قريته

ـ ومن ذا الذى أنبأك هذا ؟ .

ـ أحد رجالنا بعد أن اقتفى أثره وعلم مقره

ـ وما هى الفائدة وقد مثل برفيقيك أشنع تمثيل وكنت دائما تقول

أنهما من الأقوياء الأشداء الذين لا يرهبون الموت الزؤام ، وفى ذات الوقت لم يساويا أضعف الجبناء

— لا — قد أرسلت من أنبأنى لاستدعاء أبطالنا ومعهم معداتهم وهو لا يستطيع أن يظفر بنا مجتمعين

— وأين نقابلهم ؟ .

— ههنا على بعد عشرين مترا من هذا المنزل

ففهمت إحسان غرضيهما واستعدت لانقاذ حياة جميل ، وعلى ذلك خرجت خفية لأبيائه كل شىء

٦

أرسلت إليه إحسان إشارة برقية تنبئه فيها بمغادرة القرية حالا ، وتحضه على مقابلتها فى موعد ضربته وميدان عينته ، فلما وصلته إشارتها دهش كثيرا وأدرك أن عمها رتب شيئا جديدا وأن خطرا هائلا سيحل به

وآثر السفر فى الحال ليحظى بمقابلتها ، وليمحو ماحدث بينهما ، ودب فى فؤاده ديب الأمل من جديد ، والمحبون يعللون النفس بالآمال ، ولا يتمنون أكثر من حلول الصفاء والوئام محل الخصام وأن تدوم الودة بينهم

ولما عاد تقابلا وتعاتبا عتابا مرا ثم قال لها

— أظهرت لك براءتى

— وهل يختلف اثنان فى ذلك

— إ ن لماذا قوبلت فى منزلك بالاحتقار

— بحياتك ياعزيزى تناس خطاى وتجاوز عن ذنبى

— سأتناسى كل شىء

— ويكفيك أنى فضلتك على أهلى ، وأسرعت إلى إخبارك لأنجيك من الهلاك

ـ فى سبيلك أبيع الحياة رخيصة

ـ شكرا ـ ومما هو جدير بالذكر أن حسنى أصيب فجأة بالحمى وفسد كل تدبير عمل

ـ وكيف مرض

ـ لا أدرى وكل إنسان معرض لقضاء الله فيه

ـ وماذا تريدين منى الآن

ـ لاشيء سوى أن تنتظر قليلا حتى أرفع وصاية عمى عنى ، والمدة قصيرة إذ لا يبقى عن بلوغى سن الرشد سوى شهر واحد . وأود أن تتظاهر بمقاطعتك لى حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا

فقال لها :

وماذا أصنع ومكائده لا تنتهى ، وهو لا يتورع عن سلوك طرق إجرامية

ـ دع كل شيء يجرى تحت مشيئة الله فهو يتولاك برعايته ويحرسك بعنايته

وافترقا على أن يتلاقيا عند ما تراسله بعد أن قال لها ولكنى أخشى أن تكون الرسالة مصطنعة فضحكا وهما ينصرفان كل إلى جهة

وعادت الى منزلها فعلمت أن المرض اشتد على ابن عمها ولم تمض أيام حتى قضى نحبه وذهبت كل التدبيرات هباء منثورا

ولا تسل عن حزن أبيه عليه لأنه وحيده وكان يعلق عليه آمالا كبارا

ولما طالبت برفع الوصاية عنها ، سلم لها كل شيء ، ورجاها أن تغفر زلاته بعد أن ظهر له أنها عالمة بكل ماحدث منه فقبلت عذره ذلك لأن القلوب الطيبة سريعة التسامح ، ومنحته قدرا يسيرا من الأرض ليستطيع أن يعيش من دخله فتقبله شاكرا وترك منزلها وسافر إلى قريته وانتهت روايتها بزواجها من جميل حيث رفرف عليهما علم الغبطة والسعادة .

المطاعن

....

قد يطعن الأنسان على غيره إذا لمس فيه ضعفا خلقيا مشينا ، أو وجد فيه صفة مرذولة ، ومن الناس من يتعقب السقطات ، و يقفو زلات الأنام ، ليجعلها موضوع حديثه فى مجالس سمره . ويبعدك عن هذا النوع من الطعن ، أدب جم ، وخلق حميد ، واستقامة كاملة .

وإذا بادأت أحدا بالعدوان ، أو ظلمتـــه ، أو سلبت ماله ، فهو لايفتأ يطعن فيك بالقول الجارح واللفظ البذىء ، وهو لا يفتر عن تشويه سمعتك والحملة عليك ، وإن استطاع ان يمنع عنك الخير ، فهو لا يتأخر . ذلك لأنك أسأت إليه ، ويمكنك أن تستعبد القلوب بالأحسان إليها ، وفى قدرتك أن تجعل الألسنة تلهج بالثناء عليك بالعفو عند المقدرة ، وبمعاملة الناس بالحسنى ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

ولا تسلم من حملة الغير عليك ، لو بدرت منك بوادر ، لايمكن أن يغفروها لك ، فالأدب فى الحديث ، ومراعاة شعور مخاطبك أو مساجلك ، ووزن الكلام بميزان الحكمة ، لايجعل أحدا يتألم منك ، فلا تجد قادحا فيك ولا طاعناً عليك

ولا تنتهى سلسلة الخوض فيما يحط قدرك ، إذا أهملت فى شرفك ، أو قصرت فى واجبك ، أو كنت أنانيا لا تكرم البائسين والمعوزين ، ومن

يمتون إليك بصلة القرابة ممن عضهم الفقر بنابه

والخامل الذكر والوضيع القدر ، والقليل الحيلة والمنافقون والأفاكون ، كل أولئك يجدون من الناس إعراضا إذ يتحدثون عنهم بما لا يرتضيه لنفسه شخص موفور الكرامة .

والطعن يصدر من كل مكان إذا عرف عن الشخص أنه نمام ، يوقع بين المرء وأهله ، أو غشاش أو مرائي ، فالنفوس لا تطيق الصبر على أمثال هؤلاء ، وإذا ذكرت أسماؤهم نعتت بأحط العبارات وأبشع الجمل .

ولا تخلو من نقد مر ، إذا أبرمت عهدا ونقضته ، أو وقفت حجر عثرة فى سبيل غيرك ، ممن لا يحملون لك ضغنا أو بغضا ، وتلك صفة لا أرتضيها لك ، ومالنا وللناس نعترض مصالحهم الذاتية ، ونعرقل مساعيهم ، ونسعى إلى الأضرار بهم مع أنهم لم يقترفوا إثما ولم يرتكبوا جرما . وإن رجلا يخون وطنه ، أو يعرض أمته لخطر جسيم ، بتصرف سيء ، لا يترك عمله سدى . بل يقرن اسمه باللعنات حيا وميتا ، ويحتقر قدره أنى وجد وحيثما ثقف

تلك بعض أمثلة لأسباب الطعن ، ومن لا يحترم نفسه لا يمكن إلزام الغير باحترامه ، ومن هانت عليه سمعته كانت أهون على الناس ، والاحتفاظ بالكرامة من شأن العظماء . وخير امرىء هو من لا يتحدث أحد عنه بسوء بسبب مايبدو منه أو يصدر عنه ، من وجدان سقيم ، أو رأى عقيم ، أو تبجح مستنكر أو عمل غير صالح .

ويمكنك مقاومة هذه المطاعن والقضاء عليها ، لو عنيت بالبعد عن مسبباتها ، فاهتمامك بمصلحة وطنك وإخلاصك لمهنتك ، واندماجك فى زمرة الصالحين الأتقياء ، ورعايتك للمحتاجين والبائسين ، ومقاطعتك لما حرم الله واعتدادك بالمجد ، وتجاوزك عن إساءة المسيئين ، كل هذا يجعلك تمر باللغو

مر الكرام . وإذا نبحك أحد ذهبت صيحته أدراج الرياح ، ولم يحفل بها مروجو الأشاعات وناشرو الترهات والسفاسف .

ولكن فى أنحاء العالم فريق ممن لاخلاق لهم ، مهمتهم الحملة على الأبرياء بغير حق ، فينسبون إليهم ما ليس فيهم ، ويفسدون عليهم هناءهم وراحتهم ، بما يدبرون من حيل ، ويحكمون من مكر ، وينشرون من أباطيل ، ولكن دولة هؤلاء لاتدوم ، إذا انكشف أمرهم ، أو عرفت نياتهم ، إذ يبوءون بالخزى العار .

وفى الواقع هؤلاء عندهم لؤم ورأتى لاحيلة لنا فيه ، وجل ما أستطيع أن ألفت نظرك إليه ، هو أن تباعد بينك وبينهم ، وألا تتخذهم أصدقاء ، حتى لاتسمعهم يخوضون فى أعراض الناس جهرة ، ولا يقولون عنك فى غيبتك عكس مايذيعونه أمامك .

ولعلهم يحملون عليك عن غل أوحسد ، أو عجزعن مجاراتك فيما وصلت إليه من مركز سام ، أو ثروة طائلة . والرأى عندى أن القول الذى يتناقلونه لايلبث أن يزول ، مادام من ابتداع الخيال ولا يؤيده برهان عملى أو حجة دامغة. واعتقد اعتقادا جازما أن مطاعنهم مردودة عليهم ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

ومن العيوب الاجتماعية أن يمضى امرؤ شبابه وجهوده لأسعاد بعض أقاربه ، فلما انتهت مهمته ، انفضوا من حوله ، ولم يعترفوا له بجميل ، بل تحزبوا عليه وجعلوه مضغة فى الأفواه ، ليحطوا من قدره ، وينقصوا قيمته وهل جزاء الأحسان إلا الأحسان ؟

وهم يريدون منه أن يهمل أبناءه ، ويغفل عن مصلحته الذاتية ، ويخصهم بكل دخله ، وإلا فهو العدو المبين ومستقبل الأبناء فى مقدمة كل شيء وناكر

الفضل لاينبغى أن يقام له وزن .

وإذا كان الألم شديدا بسبب تقصيره عن ذى قبل ، فلأن مسئوليته الشخصية عظيمة ، ولأن الصغار فى السن أجدر بالرعاية من الكبار ، الذين يستطيعون المغامرة فى كسب القوت .

إن الأمور العائلية سرية ، لاتذاع على الناس . ومهما اختصم الأقارب أو تنازعوا فسيأتى اليوم الذى يصفى فيه الحساب . وبمقدار الطعن والاعتداء ، يكون الخجل . ومن عفا وأصلح فأجره على الله .

وقد يلجأ إلى المطاعن بعض المغلوبين على أمرهم ، وبذلك فهى بضاعة العاجزين ، ولا يعتمد عليها فى الكثير الغالب إلا السفهاء ، الذين لا يجدون لهم محبا أو وفيا ، لبذاءة ألسنتهم وفظاعة ألفاظهم .

وليس من الحياء فى شىء صدور هذه المطاعن فى كل مناسبة ، لأن المطعون عليه ، قد يغضب لكرامته ، فيقابل المثل بالمثل ، وعندئذ يندلع لهيب الشغب ، ورب حرب ضروس أثارتها كلمة غير مرضية .

وأقل ما فى المطاعن من بغض العقلاء لها ، أنها سلاح الغيبة التى أجمع الباحثون فى مشارق الأرض ومغاربها على بغضها وتحقيرها ، ونعت من يقوم بها بالنعوت الرديئة

وإنا لا نريدها ولا نرغب فيها ، ولا نود أن تتخذ أداة للانتقام ، إذ نحب أن يعلو لواء الوئام والصفاء بيننا ، فلا نعبر إلا عن الأغراض السامية والسمات الشريفة .

يؤلمنى

يؤلمنى أن ينالنى ضر على يد من أنفقت العمر فى مرضاته ، ولم أقصر فى حقوقه أصلا ، بل كنت عاملا جوهريا فى صلاح حاله واستقامة أموره ، ورفعة شأنه ، على حسب ما وسعه جهدى ، ومكنتنى منه ظروفى المالية .

ويؤلمنى أن أرى لفيفا من الشبان ، ممن ورثوا المال الوفير يضيعون ما وصل إلى أيديهم فى المعاصى غير مبالين بسقوطهم ، فلما ضاعت ثروتهم نزلوا إلى ميدان التسول يسألون الناس إحسانا . وكانوا فى غنى عن إراقة ماء وجوههم ، لو اتبعوا طريقا سليما وسلكوا مسالك الصالحين .

ويغضبنى أن يتبجح طالب ويتصور أن مركزه أقوى من مركز أستاذه ، أو يحادثه بشىء من الجفاف ، وهو يعلم أن المعلمين يتضامنون على تثقيفه وتهذيبه ، وإعداده إعدادا طيبا ، وهم لا يستطيعون تأدية وظائفهم إلا فى جو هادىء مبنى على الأدب والاحترام .

ويسيئنى رجل لا يعرف لنفسه حقها ، وإذا جادلنى أو خاطبنى رفع صوته وقلب سحنته ، وألقى القول جزافا بلا وعى . ولا يراعى ما يصدر منه ، وسواء لديه العبارات الجافة أو الجيدة . والعنف دليل الضعف والجهل ونقص التربية .

ويحزننى أن أسمع حديثا عن تقصير الأبناء نحو الآباء والأمهات ، وبخاصة الضعفاء والمرضى . وإن شابا قادرا على الربح يترك أباه يتضور جوعا ، أو

يرمى بأمه تحت رحمة القدر ، إرضاء لزوجته أو ذويها لجدير باللعنة ، وقمين بالازدراء ، لأنه لا خير فيه ، ولا قيمة له . ومن لا تأخذه شفقة على أبويه لا يمكن أن يكون ذا وجدان سليم . ولا ينبغى أن يعول عليه فى شيء

ولا أرتضى أن يكون من بين أصدقائى واش يفشى أسرار الغير ، أو يحدثنى فى شيء ، ليحملنى على مقاطعة الأوفياء ، أو لأعدل عن القيام بواجب عائلى أو إنسانى . إذ لا أستطيع أن أخفى ألمى أمامه ، عند سرد آرائه المنحطة ، ونصائحه السخيفة ، وما كان لنا إلا أن نعاون على البر ، ونساعد على مدح من يضحون فى سبيل الله والوطن والمروءة .

ويضايقنى جاهل يحشر نفسه فى زمرة العلماء ، ويخطىء رأيى العلمى بخرافاته وسخافاته . وإذا حاولت إقناعه هزأ بنظرياتى وسخر من آرائى ، مع أنه لا يفرق بين الألف والمئذنة . ولذلك أستحسن السكوت على مضض فى المجالس التى تضم أمثاله . ولو تخلى عن هذا الغرور وأنصت إلى ذوى الرأى بدون مكابرة ، لاستفاد ماينفعه ، ولكن الغباوة وضعف الأفق العقلى ، لم يتركا له صبرا ، ولم يحضاه على معرفة مركزه ، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه .

ولا أجد نفسى مسروراً من شخص يظهر غير مايبطن ، ويتلقانى بالبشر ويكيل لى المدح كيلا ، فلما وليت عنه وجهى ، أو وجد فى مكان لم أوجد معه فيه ، قلب مدحه ذما ، واستبدل الثناء بالقدح المر ، والطعن الشديد . والظهور بوجهين من شيمة الأدنياء ، وهم لا يعاشرون ولا يخادنون .

وكم أكون مغموماً عند ما أجد أبناء وطنى منقسمين متخاذلين ، مكونين لأحزاب شتى متقاطعة ، يسعى كل فريق لهدم الآخر بكل وسيلة ، مع أن المصلحة الوطنية تتطلب التضامن والاتحاد ، وما رأينا شعبا نجح

بالانقسام ، أو وصل إلى درجة سامية بالتنابذ بالألقاب .

ولا أعتقد أنى أستطيع السكوت على عمل رئيس لا يصدر أوامره فى شىء من اللياقة والأدب ، وإن كنت أسبق الناس إلى إطاعة الأوامر المعقولة التى تتمشى مع مصلحة العمل . والتعاون بين الرئيس والمرءوس أفضل وسيلة لقيام كل بما فرض عليه ، وما وجدتنى يوما أخضع لمتكبر ، أو أحمل الضيم من رجل يعتبر نفسه سيداً والآخرين عبيداً ، ولا أزال أذكر قول الشاعر :

سفها لحلمك إن رضيت بمشرب رنق ورزق الله قد ملأ الملا

وتهيج أعصابى لو أبرم معى شخص عهداً ثم ينقضه ، أو يتلاعب باتفاق مهره بأمضائه ، حيث لا يعمل كما ورد فيه ، فقد أتقيد بتنفيذ مسألة مالية مثلا ، بناء على ما ورد فى بنود هذا الاتفاق ، فلما أخل بما التزم به ، عرضنى لموقف عصيب أو تقليده ، وهو ما لا أرضاه لنفسى مهما كانت النتائج .

ولا أخفى عليك أن الزميل الأنانى لا أقيم له وزنا ، والأرزاق لا تأتى عن طريق الاستجداء ، والتردد على الأبواب ، وسد السبل على السجراء ، وإنما تأتى عن إثبات الكفاءة وحسن الأنتاج ، وتقدير الناس . ومادح نفسه تقل الثقة فيه .

ولا يعجبنى فى الأبناء زهو ، أو ممالأة لما نراه بين أفراد الطبقة الجديدة ، كالسير حاسر الرأى ، أو ملء الصدر بالورد ، فهذا من شأن ربات الحور . ولا يرضينى منهم عدم الاكتراث بمن كان أكبر منهم سناً ، أو أرقى فضلا ، وأعظم مقاماً . إذ أرغب أن يشبوا على الكمال . وما طريق العظمة أشياء تافهة كهذه ، بل الجد والاجتهاد والانصراف إلى صالح الأعمال .

وأرانى متبرما برجل حضر خلافا بين اثنين فلم يعمل على تسويته وإنهائه ، بل مال إلى أحد الجانبين ليزيد الأمر تعقيدا . ولا جرم أن حسم النزع

يجب أن يكون غرضا أساسيا فى مثل هذه المواقف .

ويكدرنى مخلوق يتطوع لمعاونتى فى توزيع بعض ما ألفت من كتب مدرسية أو أدبية ، ثم يأخذ الثمن لنفسه لقمة سائغة . وإذا حاولت الاتصال به يتهرب ، أو ينتحل المعاذير ، أو يسوف ، حتى إذا ماتقادم العهد أسقط من نفسه ما هو مطالب به ، واعتبره حقا مكتسبا له ، وهو بهذا يغتصب شيئا من الناس تحت ستار التطوع والمعاونة .

ولا يعجبنى بتاتا كثرة سؤال بعضهم عن مرتبى ، إذ أتصور أن معيار الاحترام فى نظرهم قدر الدخل ، ومن أجل هذا ترى فريقا من الموظفين يضاعف قيمة مرتبه إن سئل عنه ، حتى لا تقل مكانته . وأقدار الناس تتفاوت بمقدار علمهم وأدبهم لا بمالهم . وإذا كان ما أحصل عليه شهريا قليلا أو كثيرا ، فهو لا يغنى السائل ولا ينفعه ، وهو لا يأخذ شيئا من الكثير ، ولا يضيف شيئا إلى القليل . وإذا كتب الله الستر للناس ، فلا ضرورة إلى التفتيش عن أسرارهم .

واستفظع من الرجل قسوته على زوجته ، أوهدمه لأسرته ، بأن يكون مزواجا مطلاقا قليل الاكتراث بمستقبل بنيه .

وإذا رغبت أن أجمع لك هنا كل شىء أتألم من أجله ، طال بنا الشرح ولذلك اكتفيت بهذا النزر اليسير على سبيل المثال ، وأنت تشعر مما قدمته أن كدر النفس راجع إلى أغلاط الخاطئين وتصرف الخائنين .

ثورة النفس

....

يخيل إليّ أن ثورة النفس بغير وعى ، تودى إلى الهلاك أحيانا ، وقد تصدر عنها محن الدهر ونوب الزمان ، فوق أضرارها بالجسم والعقل معاً .

والثائر فى تهوره يأتى بأشياء لو ثاب إلى رشده ، يستنكرها ويتندم للاتيان بها ، ويعتذر عما يفرط منه حيث لا يفيد الاعتـــذر فى كثير من الظروف . وربما ملئت السجون بعدد جم من أمثاله ، ورب حرب ضروس تطايرت فيها الرقاب ، وتدمرت بسببها مدن عامرة مرجعها شىء من هذا ، بأن تطاول شخص مسئول فى أمة على نظير له فى أمة أخرى.

والانفعال على هذا النحو لا يصلح أداة للمعاملات والروابط الاجتماعية فالقاضى إذا لم يكن مطمئن النفس هادىء البـال ، لا تنطبق أحكامه على القوانين المرعية ، والطبيب لا يمكنه وصف الدواء الناجع وهو ثائر النفس ، والشخص الذى لا يملك قياده ويهاجم غيره بالسوء ويبادئه بالعدوان ، لا يجد له خلا وفيا أو صديقا حميا ، لرعونته وغطرسته وتقطيب جبينه من غير داع.

إن التهيج يكثر الأعداء ويجعل الأنسان موضع ازدراء ، وكأنه من الدوافع إلى الجنون ، لأن بعض الأشخاص إذا آنسوا من امرىء غضبا وتهيجا لأبسط الأمور ، اتخذوا من ذلك وسيلة للنكاية به والسخرية منه ، فيتعرضون للأسباب التى تحمله على الخروج عن طوره حتى يضحكون ، ولا

يرتضى عاقل أن يصل إلى هذه الدرجة المزرية .

ويقول فريق من الباحثين أن هذه الثورة طبعية لا تدخل تحت إرادة الأنسان ، أى أن مايصدر عنه لا رأى له فيه ، وعندئذ لا ينبغى أن يوجه إليه لوم أو تثريب . والظاهر أن هذا القول لا نصيب له من الصحة من كثير من الوجوه ، لأنه إذا انفعل على زميل أو مرءوس أو قريب ، فأنه لا يثور أمام رئيس كبير أو حاكم عظيم أو ذى سلطة هائلة . بل قد يتقبل الأهانة من أمثال هؤلاء صاغرا ، خوف العقاب أو ضياع الوظيفة . ومن ذلك نستنتج أنها لا تحدث إلا برغبة نفسية بعد تصور الوسائل التى استوجبتها أى أنها تصدر عن باعث فكرى مشفوع بالنزوع أو الأرادة .

وإذا ادعى مدع أن ليس فى قدرة الأنسان دفعها وتطهير النفس منها ، فأن هذا الأدعاء يوجد له مايهدمه فوسائل الهدوء لا تدخل تحت حصر . والذى يستطيع أن يذلل الهواء والماء ، ويسخر قوى الطبيعة وينفذ بعقله إلى كل سر من أسرارها ، يمكنه أن يكبح جماح نفسه بشىء من الرزانة والمران والتعليم والتهذيب،ومخالطة الأبرار ، وترك الأماكن التى يشعر فيها بخروجه عن طوره ، وبمغالبة الرذائل بعزيمة صادقة وإيمان ثابت .

إن التريث فى الأمور يدعو إلى تهدئة الخاطر ، وليس من الضرورى أن يصبح سوء الظن عادة ملازمة فنؤول حركات الناس وأعمالهم تأويلا لا ينطبق على الحقيقة .

وما لنا وللناس فليعملوا ما بدالهم ، ولماذا نتصور أن لفتة من لفتات أحدهم أو نظرة منه إلى سواه ، أو ابتسامة أو نحو ذلك تصدر لأغراض سيئةفيدفعنا سوء الفهم إلى الاعتداء على هذا أو إهانة ذلك، وإذا تبين أننا كنا خاطئين لازمنا الخجل مدة طويلة .

ولا مشاحة فى أن التسامح والحلم والعفو عند المقدرة من صفات الكريم ، فلا تتمادى فى إهانات إخوانك أو مرءوسيك ،أو من لهم صلة بك، وإلا نفرت الجميع منك ووجدت نفسك فردا ينفض الناس من حوله .

ومن الرعاع من يعترض المارة بالسب والشتم ، ومن الأوغاد من لا يتورع عن مخالفة القوانين، ومن السفلة من ينالك منهم أذى لو اشتبكت معهم ،فاذا دفعتك ثورة النفس إلى الانتقام من هؤلاء أو مجاراتهم ، أصابك مكروه لا أرضاه لك . ولو كنت المنتصر ساقوك إلى السجون ، وهذا لا يليق بكرامة المتأدبين المثقفين ، وحدوث شيء كهذا يضيع على المرء جهوده ويفقده حقوقه السياسية والمدنية،ومن أجل هذا لا تطرق بابا يلجه هذا النوع

ومن الناس من يقيم الدنيا ويقعدها لأن رجلا نقل إليه خبرا مكذوبا عن صديق أو قريب ، فيقاطع ذلك الصديق ويناصبه العداء ، وإن استطاع تسفيه آرائه أو الانتقام منه لما تأخر ، ولو نظر نظرة صادقة فى قول الناقل لضرب به عرض الحائط وأراح ضميره .

وإنى لا أرى موحيا لأخذ الأبناء بجريرة الآباء فيضطهدون لأن عداوة قامت بين أسلافهم وقوم آخرين ، وما جنوا حتى يظلمون ، ولا يسأل شخص إلا عما جنت يداه أو عما اقترف من إثم بالذات .

والثورة بعد الثورة تورث الحماقة والسفه ، وتزيد فى خبال العقل ، وقد تؤدى إلى أمراض عصبية ، وفيها ما فيها من سوء المنقلب والشقاء .

لا تحمل للناس ضغطا ، وتذكر ما أسدوه لك من جميل ، وما طوقوا به عنقك من فضل ، ورب كلمة طيبة قلبت العدو المبين صديقا حميما ، وهم ينصرفون بكلياتهم وجزئياتهم الى من امتاز بلين الجانب والبشاشة والدعة ، وإذا شعرت من نفسك بدافع إلى الغضب وميل إلى الثورة فتجنب الوسائل

التى توقع فى التشاحن والتباغض .

ولا تظن أننا نطالب إليك ألا تتحرك للأخذ بناصر الملهوفين ، أو مساعدة البائسين ، أو معاونة المظلومين ، وإنما نريد منك تبصرا فى العواقب ويقظة فى إصدار الأحكام وسيرا على سنن الأخلاق ، واذا نادى المنادى لخدمة الوطن كنت أول من يلبى النداء ، واذا وجدت كرامتك انتابها شىء من الامتهان غضبت لها وحافظت عليها . وكل ما نقصد اليه ألا تثور نفسك للأمور الواهية ، وألا تحفل بالترهات ، وألا تعمل الا عن يقين وخلود الى السكينة وروية وبعد نظر .

الدائن والمدين

قد يتردى الانسان فى الدين لظروف قهرية ، وقد يتردى فيه لأنه ضيع الحرث والنسل بسوء تصرفه . وعلى كلا الحالين فهو طريق وعر المسلك ، صعب الاحتمال ، يطيل هم المدين ويشعره بالذل ، مادام عاجزا عن السداد ، غير قادر على رد الأمانة الى صاحبها .

والمدين لتهيبه الفضيحة والخجل عند ملاقاة دائنه وهو صفر اليدين ، دائم التفكير كثير الاضطراب . وما كان أغناه عن كل هذا لو اقتصد فى يسره ما ينفعه فى عسره ، أو لو احتفظ بجزء من ماله فى أيام رخائه لأيام محنته ، والدهر لا يسالم دائما ، وكل منا معرض للخير والشر ، والغنى والفقر ، وإقبال الدنيا وإدبارها .

إن الاعتدال فى الأنفاق يوفر عليه كرامته ، ويحفظ عليه ماء وجهه ، ويغنيه عن سؤال الكريم واللئيم ، ويشعره أن ليس لأحد عليه فضل ، ولا يعرضه لرفض هذا وإعراض ذاك وامتنان البعض تارة ، وذكر ما يؤلمه ويجرحه تارة أخرى .

وإن فى الماضى الغابر عظات بينات ، فإن أقرب الناس إليه مودة لم يتورعوا عن إساءته مرارا ، بكشف أسراره واختلاق الأكاذيب عليه ، من أجل تأخره عن استرجاع دين استدانه منهم أو عن طريقهم .

وما كان فى الأسراف إلا ضياع الثروة أو المتجر أو ما ملكت اليمين

و إنقاذ الموقف بالديون يزيد الأمر خبالا ، إذ يضاف إلى الحالة الأولى السيئة، التزامات أخرى ، فتكثر المطالب وتقل الموارد ويذهب الحابل بالنابل .

ومن يستسهل الدين بالربا الفاحش أو غير الفاحش ، ليلهو فى الحياة الدنيا ، وجد متاعه رهن مرور الأيام ، واضطربت أحوال عيشه ، ولم يجد تلك الطمأنينة التى يتمتع بها البعيدون عن أخطار الربا ، وما رأيك فى رجل يصل إلى جيبه قدر من المال ويلزم برده أضعافا مضاعفة .

ومثل الدائن فى جبروته وبطشه وإرغائه وإزباده ، كبحر هائج تتلاطم أمواجه ، فهو إن تأخر المدين له فى شئ ، رفع صوته وملأ الدنيا صياحا ، يريد إهانته ، لأنه لم يوفه حقه فى الموعد المضروب . وما كان العنف طريقا للمحافظة على الحقوق ، وإذا كان هذا شأنه ، فليس من الضرورى أن يعطى الناس شيئا ، ليشهر بهم ويفضحهم ، ويزيدهم ألما على ألم . ولو علم دخيلة النفوس لهدأ من روعه ، إشفاقا بهم ، وضنا بكرامتهم من السقوط ، ولعمل بالرأى الذى يقول نظرة إلى ميسرة .

وإعطاء شيء لصديق أو صهر أو قريب لأجل مسمى ، مصدره المروءة والمعاونة فى وقت ضيق ، وليس الغرض منه التفاخر على الجميع ، وإثبات أن الشخص الذى يدين غيره أعلى مرتبة ، فقد يكون فى ذمتك أجر خادمة أو غاسلة أو ظئر ، ولم يقل أى فرد أن واحدة من هؤلاء أرقى من رب الدار قيمة وأسمى مقاما .

وقد قص علىّ مدرس أن أحد زملائه ، ممن يبيتون على الطوى ليكنزوا الذهب والفضة ، جاء لأخوانه قبيل انقضاء أحد الشهور ، وعرض عليهم جميعا أن يقرضهم ما شاءوا ، واشترط لذلك شرطين ، أولهما ألا يزيد مبلغ كل عن مائة قرش والثانى أن يكتبوا له صكوكا بما أخذوا حتى يأمن جانب

الراغب فى عدم رد الحقوق إلى ذويها ، ففعلوا و كانوا له من الشاكرين .

ولم يمض يوم أو بعض يوم حتى وجدوا منه شذوذاً فى معاملتهم، وتكبراً عليهم ، بدرجة لم يألفوها من قبل ، وبلغهم جميعا ما تحدث به عنهم من جراء هذه الدريهمات القليلة . وعند استلام مرتباتهم فى مستهل الشهر التالى وجدوه لدى رئيسهم يقدم له الصك الخاص بمن يأخذ الجعل ، ليستقطع منه ما أخذه قبل ذلك بثلاثة أيام ، حتى استحكم العداء بينه و بينهم لهذا المسلك الغريب .

وفى رأيى أن مثل هذا الدائن غير جدير بالاحترام ، لأنه رغب فى السيطرة على رصفائه من طريق المال ، واستغلال موقف احتياج الجميع إذ لا يخفى أن اليد تخلو من المال عند ماتبتدىء العقدة الثالثة من الشهر .

وهم لم يسألوه شيئا ، ولم يشكوا له حالا ، وإنما لبس لهم رداء الشهم الكريم، لينفخ أوداجه إذا شاء أو شاء له هواه ، وليختال على الناس أو ليجد منفذا لادعاء جميل إن غاضبه أو خاصمه أحد .

ولا يخلو المدين من لوم ، لأنه لم يتفرس فى الوجوه عند مد يده ، ولم يعمل فى دائرة دخله ، ففتح باب الاستدانة على مصراعيه ، ظانا أنه قادر على الخروج من المآزق الحرجة ، على طول الزمن ، ولا أخليه من تبعة إذا بلى بحب الظهور ، فينفق عن سعة فى ظروف لا ينبغى فيها الانفاق ، حتى يقال عنه أنه كريم أو غنى أو عظيم .

وإننا فى مآتمنا ومهرجاناتنا نسير على شىء من التهور لاحد له ، وإذا بررنا هذا البذخ بواسطة الأغنياء فأننا لانبرره لدى الفقراء ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها . وإذا خشينا نقد الناس لتقصير فى مثل هذه المواقف ، فأن هذا أسهل بكثير من تعب جم ، ألم نمض بسبب ديون لا يسهل تسديدها إلا بعد مدة يطول أمدها .

ومن الحيل المدهشة التى يلجأ اليها بعض الدائنين انتهازهم فرصة حادث جلل ، أو مسألة ترى نفسك أمام أمر واقع بسببها فى أنك فى حاجة ماسة إلى مبلغ جسيم ، ثم يهرعون إليك ليقدموا ما يمكن أن يقدموه عن طيب خاطر ، وهم يلحون ويلحفون فى الرجاء ، حتى يحملوك على قبول رغبتهم ، فلما تشرع فى التسديد يخالطونك ، وأنت لا تستطيع رد مفترياتهم ، إذ المفروض أنهم تطوعوا للخير ، ويستحيل عليهم أن يأخذوا مال أحد بغير حق ، وإن عارضت أو شئت البرهنة على أن ما كان لهم رجع إليهم ، هوشوا عليك بالأقسام حتى يظفروا منك بشىء .

ومن هؤلاء من يدينك ليرغمك على إدانته بعد ذلك ، فلما نال بغيته ترك مجلسك وحاولت عبثا أن تسترد ما سلب . ومن هؤلاء تاجر يغريك بأن بضاعته تحت تصرفك ، وأنه لا يأخذ منك إلا ما يفيض من بحرك آخر الشهر . فلما فتحت لديه حسابا ، أخذ فى الاشتطاط فى الأسعار ، وفى تقديم أحط الأنواع بأغلى الأثمان وربما ضم إلى المطلوب منك ما لم يكن قد وصل إليك ، حتى إذا ما أغرقك فى الدين وجدت نفسك مقيدا به لا تستطيع التحول عنه ، إلا اذا خلصت نفسك من براثنه بسد ما يدعيه دفعة واحدة ، وفى ذلك من المضايقة ما أنت عالم به .

والحق أن الشراء بالنقد مريح ، لا تعسف فيه ولا تخبط ، ويوفر لك شيئا من النفقات ، ربما كانت عونا لك على استقامة الأحوال المعيشية شيئا فشيئا . وأرباب العائلات يشعرون بصحة هذه النظرية من غير حجة أو برهان ، فقد جرب معظمهم الطريقتين ، وتبين لهم أن الثانية أفضل بكثير من الأولى .

وإنى لا أستحسن شراء الأثاث والملابس ونحوها ، على أن يسدد الثمن

نجوما ، فأنك إن نفذت هذا وجدت نفسك لا تستبقى قرشا واحدا مما تأخذه من المرتب وفى ذلك ما فيه من الآيلام وسوء الحال .

ولا يفوتنى هنا توجيه النقد إلى الذين يستدرون العطف والرحمة بشتى الوسائل ، لينتزعوا من جيبك شيئا من النقود على سبيل الاستدانة ، وقد أصروا فى نفوسهم أن يغتصبوا ذلك اغتصابا ، إذ لا يحفلون بطلب ولا رجاء ، ولديهم سلاح التسويف يشهرونه متى شاءوا . ومن يعرف عنه هذا لا يجد معينا إن هجمت الحادثات بخيلها ورجلها عليه . ولا أعفى من التثريب مدينا لا يرد ما عليه ، مع أن خزانته مملوءة ولكنه لا يرتضى إنقاص ما فيها ولو تعذب دائنه من كثرة التردد عليه .

وآخر ما أقوله أن لا عز مع دين ، ولا سعادة مع إسراف ، ولا اطمئنان مع تبذير . فجاهد فى أن تستغنى عن مال الغير بمالك الخاص حتى لا تكون لدائن كلمة تؤلمك أو تحرجك .

الامال الضائعة

لا يزال الإنسان فى هذه الحياة الدنيا بخير مادام موفقا فى أعماله ، ناجحا فى مقاصده . ولا يتكدر صفو عيشه إلا إذا خابت أحلامه ، وضاعت آماله ، وفقد أمانيه التى علل بها النفس زمنا طويلا .

وأنا لا أتحدث إليك عن الأحلام التى أملاها الخيال الجامح المطلق ، فتلك لا استقرار لها ، ولا سبيل إلى تحقيقها . وهى كالريح تهب على الزرع فيميل فى اتجاهها ، ثم لايلبث أن يعود كما كان لبعدها عنه .

إن الآمال التى أتعرض لذكر شىء عنها هي ما أجهدت نفسك فى تثبيتها ، وصرفت عمرك فى الوصول إليها ، وبذلت ما فى وسعك فى سبيلها بهمة ، لاتعرف الكلل ، ثم وجدتها فى الساعة الأخيرة تذهب كأنها لم تكن .

وإنك لو سألت شخصا تعلوه الكآبة وتلازمه الأحزان عن السر الذى ألجأه إلى الظهور بهذا المظهر ، لعلمت منه لأول وهلة ، إن لم يضن عليك بدخيلة نفسه ، أن الذى أوصله إلى هذه الحالة السيئة أمل ضائع ، ورغبة لم تجد لها تحقيقا ، ورجاء القبض على نجوم السماء أقرب إليه من بلوغ الغاية منه .

ومن ثم كانت هنالك آمال لها دخل فى دفعنا على السير إلى الأمام ، لنخرجها من حيز الفكر إلى حيز العمل . ولولاها مارغب أحد فى طول البقاء . ولعل

الخيبة فيها نتيجة من نتائج الأعمال ، وجزاء وفاق لمن وجدت أمامه الفرص المناسبة فلم يقتنصها فى حينها ، بل هى عقاب الكسلان .

وفى رأيى أن المرض الشديد بل الموت الزؤام الذى لا يبقى ولا يذر ، أخف وطأة من الفشل الشنيع ، والخزى المريع ، ففيهما لو علمت بلاء عظيم لأن للمرض مدة تنتهى بالأبلال ، أو على أكثر تقدير بشرب كأس الحمام ، وفى ورود المنية الراحة الأبدية ، والبعد عن المتاعب وتجشم المشاق . وأما ما نحن بصدده فشبح مخيف ، وسيف مسلول على هامة من بلى به ، فيقطع أيامه منكدا ، وكلما مرت به الذكرى ، عصفت به عواصف الحزن ، وأضحى ممن لا اطمئنان لنفوسهم ، ولا هدوء لبالهم ، ولا راحة لضمائرهم .

ويقول بعضهم إن حظك فى يدك وهو رأى ، إن لم يكن صحيحا فى كثير من الظروف ، إلا أنه لحد ما يدل على أن الأنسان مسئول عن مستقبله وسعادته ، بما يبديه من نشاط وجد واستقامة . ومن العبث ألا يسعى الأنسان إلى تحقق أغراضه السامية ونواياه الطيبة ، ومن الجبن أن يكون من العاجزين وفى قدرته أن يكون من الموفقين الناجحين .

أنا لا أنكر على الشهم قوة يقينه ، ولا على المدرس الكفء إخلاصه ، ولا على الطبيب الماهر قدرته فى إستئصال الأمراض ، ولا أنكر مناوأة الدهر للأحرار ، ومعاكسة الأقدار لأصحاب النفوس الشريفة ؛ ولكن لا أريد أن تكون عدو نفسك والساعى لحتفك بظلفك . وأرغب فى أن تترسم أقدام العظماء حتى تصير منهم ، وتصبح من حاملى لواء المجد .

ولا تحسبن الآمال لعبة هازل ، أو سفه حلم ، تنشده فى سماء الخيال الوهمى ، وإنما تحتاج الى مجالدة الدهر ومصارعة الحدثان ، حتى يبعثك الله مقاما محمودا ، وإذا رغبت فى التفوق على الأقران ، وفى النصر على الأعداء ،

وفى تقدير الناس لك أكثر من غيرك ، فأعد لكل شيء عدته ، حتى لا تبوء بخزى أو فشل .

إن الصدمة فى الآمال قد تأتى عن طريق من أخلصت له الود وخصصته برعايتك ، وأحللته محلا عظيما ، لأن الدنيا تنكرت لك ، أو لأن سواك أصبح أرغد عيشا وأوفر مالا وأكبر جاها .

ومع أن الآمال متعددة متنوعة ، وللشاب فى مقتبل العمر قسط وافر منها ، فهو لا يرجو إلا النجاح فيها ، إذا كان كبير الهمة جليل القدر ، ولكن من قعد به جده ، وقبع فى كسر بيته ، وألف الخمول واستكان إلى المهانة ، فمن غيره أكتب . ومن علامة النجابة ألا تستشير جاهلا ، وألا يملك قيادك غبى ، وألا تخضع لسلطان غاش لك حاطب عليك ، بعد أن تبين لك سوء نيته المرة بعد المرة ، وإلا فالخيبة واقعة لا محالة .

ومن أغرب ما يتحدث به الورى أن تكون قد عقدت أملا ، وعملت على تنفيذه والدفاع عنه ، فاذا بك المعول العامل على هدمه ، والثبات على المبدأ وعدم التردد والتقلب بين الأهواء ، من النقط الجوهرية التى تعينك على الخروج من زمرة الخائبين .

وإنى أربأ بك أن يكون الأمل الضائع مطلبا من مطالبك ، إن رغبت فى عيشة راضية وهناء مقيم ، والأمر يومئذ لله .

الشعر

كتب فى الشعر كثير من الأدباء ، بل قلما وجدت مؤلفا أديبا لا يخلو عن ذكر شيء عنه ، ذلك لأهميته من الوجهة الفكرية ، وتصوير المعانى تصويرا جميلا ، يأخذ بمجامع القلوب فى العصور المتعاقبة .

ولم يترك السابقون للاحقين شيئا عنه ، إذ شرحوا خصائصه ومميزاته ، ودونوا أوزانه وقوافيه ، وبينوا أغراضه وأضربه ، وتعرضوا لبراعة الاستهلال فيه ، وما يسوغ للشاعر وما لا يسوغ ، ووازنوا بين الجاهلى منه والعباسى ، وحللوا مقاصد النابهين من الشعراء وفلسفتهم . وبالإيجاز لا تجد شاردة أو واردة إلا ولهم فيها رأى أو تعليل .

وأمامك المجلدات الضخمة ، والأسفار النفيسة ، بين قديمها وحديثها ، فيمكنك الرجوع اليها ، لتغذى العقل بما أخرجه لنا ذوو الفكر الثاقب ، من أخيلة بديعة ، ومعان سامية وألفاظ دقيقة . بل لا يمكنك أن تكون أديبا يشار إليه بالبنان ، إلا إذا اتصلت بالثمين البليغ ، مما ينتسب إلى فحول الشعراء ، وحاولت فهم بيوتهم العامرة فهما صحيحا بذاتك ، أو عن طريق شراحهم .

وأنا لا أشير عليك باستظهار القصائد بدلا من دراستها دراسة علمية مبنية على التمحيص والتفسير ، والتحليل والنقد والموازنة والمفاضلة بينها ، فان الاستظهار لا يفيدك كادراكها إدراكا يقينياً ، واستخلاص الآراء السديدة والحكم البليغة من بين دفاتها .

ورنة الشعر فى الأذن أقوى من رنة النثر ، ولذلك كان أحرى بالبقاء أكثر ، وعنى الأدباء بتدوينه وتضمين بحوثهم شيئا منه ، وروعة الجمال فى أساليبه وإحكام سبكه تشرفه نوعا ما عن الكلام العادى ، وإن نغمته الموسيقية تدخل على النفس ميلا إليه وتقديرا له .

ولا أقصد بالشعر ما نظم فحسب ، فالنظامون ملء المشارق والمغارب ، والشعراء قليلون ، وإنما أقصـــد ما يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرك الهمم ويثير الوجدان ويتصل بالشعور اتصالا وثيقا ، من أجل هذا افترق العلم عنه من جهة التعبير ، عما يدور بخلد الانسان ، فالأول يستند إلى معان صريحة ، وقواعد مسلم بصحتها ، والثانى لا يفتر عن التهويل والمبالغة والأغراق . والسابق يفسر الظواهر الكونية تفسيرا منطقيا ، والشعر إن اتبع ذلك قلت قيمته وانحطت مرتبته ، فهو لا يعجبه منطق ، ولا يرضيه فقرات تتضمن مقدمات صحيحة ، ونتائج لا خلط فيها ، والعلم للعقول ، والشعر للقلوب ، والسابق لا تضعفه تفاوت الأساليب ، واللاحق يهدمه أسلوب ركيك ، وانحراف عن اختيار المعانى الخلابة لأنه يعنى بالعواطف بنوع خاص .

وشعراء الطبيعة ووصف قواها ومظاهرها ، أحب إلى من الهجائين ، والمادحين والراثين ، لأنهم يجدون فى سماء الخيال ، بعد التدبر فى ماصنع الله ، قدرة على الأبداع والاجادة . فى حين أن الهجائين لا يمتازون إلا بالسفاهة ، والمادحين بالرياء ، والراثين بما لا يخرج عن عبارات النائحات والندابات ، اللهم إلا إذا كتبوا بوحى وجدانهم .

والشعر إذا لم يكن صادرا من القلب ، معبرا عما يساور النفس ، قل رواؤه وضـــعف بهاؤه ،فترجمة القصائد الأجنبية إلى العربية لأخذ بعض

معانيها ، عند صوغ بعض أبيات ، لا يجعل للشعر قيمة ، لأن لكل لغة أدبها، كما أن فتح ديوان عربى للسير على نهجه ، أو الاعتداء على صاحبه لا يفيد الشاعر ، بل يوقفه جامدا عند نقطة لا يتعداها . والشاعر المبتدع هو الذى يرقى شأنه ويعظم أمره ، لأنه أتى بما لم يأته غيره ، وغاية المسألة يجب أولا أن يغزر اطلاعه ، وأن يلم بالبلاغة وسننها ، وما يجعله فى مأمن من كثرة الأخطار التى يقع فيها ضعاف العقول ذوو العلم القليل .

ولا أحمد للشاعر تعقيد ألفاظه ومعانيه ، ليبرهن على قدرته الفنية ، وعظمته اللغوية والبيانية ، وقد برهنا أكثر من مرة أن أسمى شر وشعر ، هو ماجرى بطبعه وكان سهلا جميلا ، ولا تبتكر القصائد ونحوها لتكون طلاسم لخفائها وغموضها ، ولا ينتفع بها إلا اذا استطاع استساغتها وهضمها أكبر عدد ممكن من الناطقين بالضاد .

ومن النظامين من يتخذ اللفظ أساسا للاجادة عند صوغ الأبيات ، فيفتح القاموس مثلا ، ثم ينتقى منه ما شاء من الكلمات التى يستحسنها ، أو يقع عليها بصره ، ثم يحاول إدماجها فيما يريد أن ينشره على الناس ، وهذه طريقة الخطأ فيها ظاهر ، لأن وضوح اللغة وإتقان استعمال مدلولاتها بالتراكيب لا بالمفردات ، والكلمة لا تستقر فى مكانها إلا إذا عرفت فى جملة ، ولذلك يعيب الآن رجال التربية دراسة اللغات اعتماداً على المفردات ويحتمون درجها فى جمل مفيدة أو استخراجها من القول الصحيح لا المعاجم والقواميس .

وظهرت لدى الملاحظة السابقة عقب اجتماع مدرسى عقد لاستقبال عظيم ، وتبارى الشعراء والخطباء فى تمجيده والثناء عليه ، ولفت نظرى قول أحدهم إذ ضمنه كثيرا من الكلمات التى ألمعت لك شيئاً عنها ، ولكنها مقلقلة لا تستقيم

مع المعنى ، ولا مع الغرض الذى أنشأ قصيدته من أجله ، بل يخيل إلى أن بعضها كان يتمشى مع عكس مايريده . وبعد الانتهاء من إنشاده اعترضه أديب معروف باطلاعه الواسع وذوقه السليم ، فكان رده إحالة المعترض على مختار الصحاح ، وعين له الصفحات بالذات. ومادرى ذلك الشويعر أن اللفظ الواحد يحتمل معان كثيرة ، منها الصريح ومنها المجازى. وإذا ذكرت لك كلمة (عين) مثلا لوجدتها تدل على أداة الأبصار والبئر والذهب والفضة والأرض أو العقار أو الجاسوس إلى كثير غير ذلك ، ولا تصلح البئر موضع الجاسوس بحال.

ولا تظن أن تصوير المعانى حسب ما يحضر فى خاطرك يضعف قدرك الأدبى ، بل عبر بنفسك عما يمر فى ذهنك ، والذى تراه واضحا عندك لا يكون متعذرا فهمه عند غيرك ، مادمت عارفا بقواعد النحو والصرف ، ومادام عقلك عامرا بما يساعدك على المضى فى هذا الطريق الخالى من الوعورة والالتواء .

والاستمرار على محاكاة القديم لا يدفع بالشعر إلى الأمام ، وما كان له روعته فى البيئة الصحراوية ، فى أيام الجاهلية الأولى الصادر عن سكان تلك البطاح النائية ، لا نكون مجيدين فى شىء إن قلدناه ونحن فى القرن العشرين ونعيش فى الأمصار . وماذا يسحر لب القارىء إن رآك تندب الدمن والربوع ، وتطيل الحديث فى هند والرباب ، وتصف الجمال والنياق ، وهو يعلم أنك لا تعبر بلسانك وإنما بلسان غيرك .

والشاعر المنافق يسقط نفسه ويضيع نبوغه سدى . فالقراء يعرضون عنه ، والبديهة لا تطاوعه ، والذوق السليم يتعداه إلى غيره ، وإذا نطق الأنسان بغير مايمليه الوجدان ، لا تنتظر منه إنتاجا صحيحا .

ومما تجب الأشارة إليه أن الصحف السيارة تطلع علينا كل يوم وفيها كثير من القصائد التى انتحل أصحابها لأنفسهم كثيرا من عمل الغير ، أو

يأتون بالبيت القديم ويحذفون منه بعض ألفاظ ، ويحلون مرادفاتها محلها ، والشعرور الذى من هذا النوع ، لم يأت بشىء بل لكثرة سرقاته وتشويهه لكنوز الأدب الثمينة ، لا تجد ميلا من الناس إلى ضياع الوقت فى تلاوة ما ينسبه إليه زورا وبهتانا ·

تلك ملاحظة بسيطة عن الشعر والشعراء ليست كل شىء ، وهى على حال نتيجة التجاريب ، لا تضمين آراء العلمـــاء · والمرجع الأعلى فى هذا الشأن كما قدمنا المطولات النفيسة المتعلقة به ، ففيهـا نزهة القارىء وغنية المتأدب .

الخادمان الوفيان

١

هناك فى الأندلس فى عهد الخليفة الناصر ، كان يقيم فى قرطبة أحد أشراف العرب ، من ذوى المقام السامي ، فى تلك المدينة العظيمة ، التى ضارعت بغداد فى حضارتها . وتقدمها ، وبزتها فى كثير من الشئون كفنون الأدب ونحو ذلك .

وكان هذا الشريف يعيش عيشة هادئة ، قانعا بما رزقه الله ، يبادل زوجته عطفا ساميا وحبا شريفا ، ولم يبق له من الأبناء إلا واحد اسمه خالد وكان هذا الفتى محط آماله وموضع رعايته ، عنى بتأديبه وتهذيبه ، شأن علية القوم فى ذلك العصر الزاهر .

وفى بيته درج خادمان على نعمته ، وتربيا على مبادئه ، فشبا كاملين وفيين له ، يحرصان على راحته ، والمحافظة على متاعه ، ولم يعصيا له أمرا ولا قابلا الأحسان بالأساءة .

ولما دخلا منزله صغيرين ، وظلا معه كأنهما من أبنائه ، وكبرا على طول الزمن ، زوجهما من بعضهما ، واستبقاهما لديه ، وخصص لهما جناحا من قصره ، يأويان اليه بعد الانتهاء من عملهما .

ولا يهولنك ذكر القصور والخدم ، ووصف نظام مدنى خاص بذلك العهد البعيد ، فلم يكن فى أوروبة مدينة تعادل قرطبة وتتنذ فى أبنيتها الفخمة وشوارعها المنسقة وبساتينها النضرة ·

وللناصر فضل يذكر فى تجميلها وتحسينها ، وعنها نقل الأوروبيون شيئا من أصول نهضتهم .

وكان الخادمان السالفا الذكر يوزعان عليهما العمل بالتساوى ، أمينة فى الطابق الثانى حيث تكون تحت إمرة سيدتها ، وعبد القادر فى الطابق الأول ولكن لما اشتد المرض على مولاتهما وانتهت صفحة حياتها . كان لعبدالقادر أن يصعد إلى الطابق الثانى ، ليعاون زوجته فى أداء مهمتها . لأن سيدهما رجل كريم ، لايبارح الضيوف داره ، وتمد جفانه وخوانه لرواد قصره من عظماء القوم أو أتباعهم .

وجلست أمينة تتحدث مع بعلها يوما وهى تؤدى مهمتها فقالت له :

ـ مابال مولانا دائم الاكتئاب مع أن السيدة حرمه فارقت نعيم الدنيا وشقاءها منذ عامين

ـ وكيف لايحزن وكانت مصدر أنسه وسروره ، ولم يجد منها إلا حسن معاشرة وأدب جم وشرف عظيم

ـ الحق أنها خسارة لا تعوض

ـ وإنى أخشى يا أمينة أن يتزوج ثانية فيتكدر صفو عيشنا ، وما يدرينا إن كانت الزوجة الجديدة طيبة القلب أم فاسدة التدبير ، وبنات العظماء يفضلن أتباعهن الذين درجوا فى قصورهن .

ـ وهل فى نية مولاك شىء من هذا ؟ لا أظن

ـ لم يكن فى نيته فى بادىء الأمر ولكن الحديث فى مجالسه الآن لايدور إلا حول ذلك ، ولايزورنا شخص إلا ويشير عليه بالزواج

ـ وهل كان يبدو عليه الارتياح لهذه الأحاديث ؟

ـ يتقبلها بإنصات كامل

ـ وهل قرر رأيا

ـ بالأمس فقط

ـ إذن ستكون لنا مولاة جديدة

ـ وهذا الذى أخشاه

ـ وماذا يهمك وسيدك لم نجد منه مايؤلمنا ، ولا يفرق بيننا وبين وحيده خالد

ـ إن الطباع تتغير ياساذجة بتغير ربة الدار ، وإذا آثرت طردنا فهو لابد منفذ رغبتها

وإذا بصوت سيده يقطع حديثه بقوله

وكيف ألزمكما بمغادرة بيتى وأنتما لدى كابنى فقال الخادم

عفوا يامولاى فإننا نتذاكر أمر مستقبلنا ، وعادة الفقراء النظر إلى مستقبلهم بشىء من القلق والاضطراب لاسيما إذا كانوا مقدمين على حياة جديدة

ـ وهل قدرت لى الوفاة العاجلة حتى أصبحت تفكر فى أمر نفسك

ـ عفوا يامولاى ـ فإنا لا نرغب إلا فى طول بقائك

ـ وما الذى دعاكما إلى التفكير فى ذلك ؟ لعلكما تحسبان لزوجتى الجديدة ألف حساب

ـ لو سمح لى مولاى بشىء من الحرية يمكننى أن أقول له أن هذا هو سر اضطرابنا .

ـ ولماذا ؟

ـ لأن السيدات لايعجبهن الأبقاء على من كانوا تبعا لسوابقهن ، وإذا طلب إليك ذلك فإننا نضحى براحتنا حفظا على هدوء بالك واطمئنان خاطرك .

ـ عجبا ! وهل حدث فيما مضى أن سمعت أن امرأة أصدرت إلى أمراً أو أرغمتنى على الخروج عن رغباتى .

ـ كلا ياسيدى ، وإنما مولاتى رحمها الله كانت مثال المروءة والحنان، وربما كان لها اليد الطولى فى سعادتى أنا وأمينة ، فكثيرا ماصرحت لنا بأننا لاينبغى أن نعد أنفسنا غرباء عنها ، وبلغ من كرمها أنها أوقفت بعض أقاربها عند حد ، لما خاضوا فى حقى بالسب والاهانة ، وعلى الجملة لها علينا حقوق التربية . ثم هطلت الدموع من عينيه فاحتبس صوته ولم يستطع المضى فى الاسترسال فى حديثه ، فقال له سيده وهو يحاوره.

طب نفسا ولا تكترث بشىء فمركزك عندى لا يغيره تقلب الأيام ، ولو أجمع آلاف من الناس أمرهم على أن يحملونى على فصلك من عندى ، لما نالوا منالا ، والذى أرجوه أن تحرص على خدمة ابنى ، فانى أراه دائم الاكتئاب ، ولا أعلم سر حزنه وألمه ، وكلما فاتحته فى الأمر لا يصارحنى ، أو يدفعه الحياء إلى إخفاء سره ، وأود أن تستفسرلى منه عن بعض شأنه ، لعله يفضى إليك بشىء . وإذا كان فى المستطاع رفع الأسى عنه فبادر إلى ذلك .

فقال الخادم

أنا لا أعلم يامولاى شيئا عنه سوى أنه يطيل التفكير والأطراق ، وهذه الحالة حادثة أى لم يمض عليها أكثر من شهرين ، ولا أدرى لماذا غير بشاشته وسروره بحزن عميق صادر عن ألم دفين . وسأبذل الجهدفى كشف هذا الأمر

ـ لا أظن أن شروعى فى الزواج هو الذى آلمه

ـ لايامولاى فأن مسألة الزواج لا تزيد عن يومين وأما ظهوره بهذا الشكل فقبل ذلك بكثير

ـ وهل حضر من الخارج فى هذا المساء ؟

ـ لم يأت بعد

ـ إذن انتظره حتى يعود ، وسأدخل إلى مخدعى وأريد أن توقظنى مبكرا

فلا تنس ذلك

ـ سمعا وطاعة

ولما صار الخادمان منفردين قالت أمينة

ـ ليت شعرى كيف سمع حديثنا ، ولقد كنت مضطربة أثناء مخاطبتك له ولكنك ذكي الفؤاد سريع الخاطر ، فلم تغضبه وأنقذت موقفك

ـ فقال لها

ـ لا شيء وهو يعلم فنّ الصراحة ، وبخاصة فهو عربى صميم، وهؤلاء كرام النفوس طيبو القلوب

ثم قال لها

ـ هيا بنا إلى الطابق الأول لننتظر مولانا خالد، وفيما هما نازلان طرق الباب فهرول لفتحه له ، ولما أغلق الباب دونهما قال خالد

ـ هل عاد أبى ؟

ـ نعم

ـ وأين هو الآن

ـ فى غرفته

ـ حسنا

ـ هل من خدمة لسيدى ؟

ـ لا شيء سوى أن تخبره إن سأل عنى فى صباح الغد ، أنى سأمضى النهار فى الزهراء ، تلك الضاحية الجميلة التى بناها مولانا الناصر ، وأنفق فى هذا السبيل سبعة ملايين من الدنانير ، لأمتع النظر ببساتينها النضرة وقصورها الشماء .

ـ وبمناسبة ذكر اسم الخليفة . هل خضع له عمر بن حفصون ؟

ـ أنت تقصد ذلك الأمير الثائر . إنه قد مات بعد حروب طويلة وقد

خضع أبناؤه وكفى الله المؤمنين القتال . والحق إن الخليفة عند ما جلس على العرش كانت البلاد منقسمة إلى إمارات تكاد تكون كلها مستقلة ، وذلك لضعف من تقدمه من الأمراء فى المدة المحصورة بين حكمه وحكم عبدالرحمن الأوسط ، ولكنه بهمته أخضع كل ذى سلطان ،ولم يبق أمامه إلا عمر هذا وبوفاته انتهت كل مشاغله وليس له من خطأ يؤاخذ عليه إلا اعتماده فى جيشه على عناصر أجنبية ،كالفرنجة والصقالبة الذين يشتريهم صغارا وينشئهم نشأة إسلامية بحتة ، ثم يجعلهم من أصحاب المكانة الساميه والمناصب الرفيعة

ـ وما الذى ألجأه إلى هذا

ـ لقد صرح بنفسه لبعض رجال حاشيته أنه فعل ذلك،لميل أمراء العرب للاستقلال ، وأن العناصر المكون منها الجيش من عرب وبربر ومولدين لا تحسن الثقة فيهم ولا يجمل الاعتماد عليهم

ـ إذن هذا الخليفة سيء التصرف

ـ لا تغمط الرجل حقه فله الفضل فى إعادة وحدة البلاد السياسية ، واستتب الأمن على يديه ، وفتح فى عهده كثير من المدارس ،وعمر قرطبة وأنشأ فيها المساجد العظيمة ، والقناطر الهائلة على نهر الوادى الكبير ، ولاتنس نشاط الفنون والمرافق الحيوية فى الأندلس على يديه .

ـ وهل سيتفضل سيدى أن يأمرنى باصطحابه إلى الزهراء

ـ لا . إنى أريد أن أكون منفردا هذه المرة

ـ وهل فى الأمر سر؟

ـ لا تثقل على أسئلتك ، واذهب إلى مخدعك لتستريح

فأذعن للأمر وترك خالدا وحده

وحاول خالد عبثا أن ينام فأضاء مصباحه ثانيا ، ثم أخرج من قمطره

رسائل كثيرة ، يتلوها آنا ، ويطيل النظر فيها آنا ، وهو سابح فى بحر من التفكير بعيد الغور ، ثم عاد إلى سيرته الأولى بعد قليل ، وأخرج قرطاسا كتب عليه ماشاء ، ثم طواه ووضعه فى جيبه ، وحاول ثانيا أن يجاهد النوم لعله يستريح قليلا .

٢

تم زواج والد خالد من ابنة الأمير زياد ، وهى أرملة أحد القواد الذين ذهبوا ضحايا الحرب ، فى موقعة الخندق التى حدثت سنة ٣٢٧ هـ ، وكانت أمها من الفرنجة قد سباها زياد ، ثم تزوج منها بعد أن أدخلها فى دينه ، وتعد بنت زياد من جميلات عصرها ، تبلغ الثامنة والثلاثين من عمرها ، واسمها ضياء ، ولها بنت من زوجها الأول ، تبلغ السابعة عشر من عمرها ، واسمها شمس ، وانتقلت معها ابنتها إلى مقرها الجديد .

ومن اليوم الذى جاءتا فيه ، لم يترك خالد غرفته التى فى الطابق الأول

وعرضت ضياء على زوجها أن يختار ابنتها لابنه ليتم الارتباط بينهما ، ويصبح خالد أكثر حرية ، لأنه يؤلمها أنه لا يرغب تمضية وقت معهما فى السمر والحديث ، وانعكافه فى غرفته فى الطابق الأول ، فوعدها خيرا .

ومضى عام كامل ، وخالد لا يبدى كلمة تبعث على الارتياح من جهة قبوله يد شمس . ولما ألح عليه أبوه فى ذلك أبان له فى شىء من الصراحة ، أن أمرا كهذا يستحيل تنفيذه ، وأنه لا يجد من نفسه ميلا إليها ، ولم يشأ أبوه إرغامه ، إلا أن ضياء وابنتها أعلنتا عليه الحرب منذ ذلك الحين .

وبينما كان عبد القادر وزوجته فى غرفتهما الخاصة دار بينهما الحديث الآتى :

قالت أمينة

ـ ما بال المنزل قد تغير نظامه ، فكثر خدامه ، وزاد الإسراف فيه ، وسيدي غير مبال بشيء .

ـ وأغرب من هذا أننا أصبحنا نسيا منسيا .

ـ وهل بلغك أنهم يلحون على مولاى خالد ليزوجوه من ابنة هذه المرأة المتغطرسة .

ـ أعلم كل شيء . ولكن خالدا مغرم بنت القاضى ، ولا يبغى عنها حولا

ـ ومن أنبأك هذا ؟

ـ كشفت كل شيء

ـ الحق يا عبدالقادر أن دعد جميلة جدا ومؤدبة للغاية ، ولكننى فهمت من خادمتها أنها مخطوبة لأحد كبار الموظفين فى حاشية الخليفة .

ـ أعلم ذلك أيضا وهذا هو الذى يؤلمنى .

ـ إذن تعرف خطيبها .

ـ كلا لم أره . ولكن الذى وصل إلى سمعى فقط أنه من أبناء الصقالبة الذين رباهم الخليفة ليعاونوه فى جيشه ، ويدر عليهم الخير بمنحهم المناصب الكبيرة ، وما دام الإنسان مقربا من السلطان ، يقبل الناس عليه ويؤثرونه على سواه .

ـ وهل تقدم سيدى خالد بطلب يدها

ـ لا ـ ولو فعل ، لما امتنع مولانا القاضى عن مصاهرته . وأخشى أن يتم زواجها بهذا الصقبلى الذى لا نعرف له أسرة ولا حسبا .

ـ وماذا يفعل سيدى خالد لو خرجت من يده

ـ لا أدرى . إلا أن الغم يلازمه والكدر لا يفارقه

ـ وهل هى تقاسمه الحب ؟

ـ مايقال عن ليلى ومجنونها ، وعزةوكثيرها ، وبثينة وجميلها ، لايساوى جزءا ضئيلا مما يجب أن يقال عنهما .

ـ مسكين يا سيدى خالد

ـ نعم أنا مسكين جدا يا أمينة

فدهشت عند ما سمعت هذه الجملة ، ولكنها التفتت فوجدت المتكلم سيدها خالد ،فوجمت صامتة ، ولم تنبس ببنت شفة ، وقال عبد القادر

ـ مرنى يا مولاى ، وأنا أتحـــدث إلى أبيك فى شأنك ،لعلى أوفق فى نجاح آمالك .

ـ تطلب المستحيل ياعبد القادر ، فأن أبى يشايع آراء زوجته ، ويرغب أن أفضل ابنتها على نساء العالمين . وترانى بينأمرين ، فلا أحب مخالفة أوامره ولا أرغب فى غير دعد .

ـ لا أعتقد ياسيدى أن أباك يرغمك على ضياعآمالك، وربما كان خالى الذهن ، وإذا شرحنا له المسألة وأطلعناه على ما خفى من أمرك ، استخدم صداقته مع القاضى ،وحول التيار إلى قبلتك .

ـ ليس منفائدة ،إذ كاد يتم كل شىء ،ثمغادرهما وانصرف منغيركلام فقالت أمينة

ـ نحن فى غرفتنا وما الذى أسمعه حديثنا .

ـ يظهر أنه كعادته لا يزور النوم أجفانه ، فنزل يتمشى فى حديقةالمنزل فسمع صوتك العالى . ولكن انتظرى قليلا . وأرسل نظره نحو الباب ثم استأنف الحديث بقوله ، إنه خرج الآن ، ويظهر أنه اتجه لمقابلة دعد ، وسكت برهة ثم قال

مساكين أولئك المحبون يضيعون أوقاتهم في كمد وحزن ، وإذا بان لهم بريق أمل في لحظة أصيبوا في أمانيهم سنين . وهم يخاطرون بأنفسهم في ارتكاب متن الأخطار وهم لايشعرون . وما رأيك ياأمينة إذا علم القاضي بأنه يقابل ابنته ويطارحها الغرام ، والعرب يفضلون الموت على حدوث هذا، وقد كانوا في جاهليتهم يئدون البنات تخلصا من مثل هذه المواقف

ـ لا رأى لى فى ذلك . ولكن فاتنى أن أذكرك بهذا الزائر السمج الذى يحلو له التردد على منزلنا فى غيبة سيدنا ، وتقول ضياء أنه أخوها الصغير ، ولكن وجه الشبه بينهما بعيد ، وسلوكهما وأحاديثهما تريبنى كثيرا

ـ وهل رآه سيدى هنا مرة

ـ ولا مرة . لأنى لاحظت انه لايأتى إلا فى غيبته ، وبخاصة إذا سافر لتفقد مزارعه أولمهمة من مهام الدولة

ـ وهل هو معها الآن

ـ لاشك فى ذلك وأنت تعلم أن سيدك قد سافر بالامس وقرر ألا يعود قبل عشرة أيام

إسمعى . إسمعي إن بابنا فتح

ـ لاتظن ذلك

ـ وأغلق ثانية

ـ لعله الهواء ودعنا نكمل حديثنا

ـ أحلى الحديث للغد لأننى أريد أن أنام ، ولو حدث ماحدث لاتيقظينى فأننى متعب جدا

والذى فتح الباب على هذا النحو هو سيد الدار ولعله عاد لأمر ما إذ

رأى أن يؤجل السفر لموعد آخر

وفيما هو يصعد درج المنزل سمع حديثا يدور بين زوجته وشخص غريب فجمل صعوده بخفة لكيلا يشعرا به ، وإذا به يسمع ما يلى

ضياء ـ يكفيك أنى أسمح لك بزيارتى وأخاطر بمركزى وعلاقاتى الزوجية

ـ ولكنك وعدتنى بالزواج فلماذا اخترت هذا العجوز

ـ هى رغبة أبى رحمه الله لأن أخلاقك لم ترضه، ولأن مركزك الأدنى لايتناسب مع مقامه .

ـ ولكنى أحبك

ـ وأنا أيضا .

ـ بحياتك نغصى على الرجل عيشه وابذلى جهدك فى الخلاص منه

ـ سأفعل

ثم قبلها وضمها إلى صدره ففتح رب الدار عليهما الباب ، وهما على هذه الصورة ، وهجم على الرجل يريد قتله وحدثت بينهما جلبة وضوضاء ومسكا بتلاليب بعض وفى أثناء المقاومة بينهما خرجت المرأة وأحضرت خنجرا وطعنت به زوجها من الخلف فأردته قتيلا .

وفى أثناء ذلك صعدت أمينة إلى الطابق الثانى ، واختفت وراء الباب فوجدتهما يحملان جثته ويضعانها على سريره ، ثم يتعاونان على غسل الدم وتنظيف المكان، واتفقا على إدانة ابنه ، ثم تسلل الرجل وخرج وذهبت هى أيضا إلى غرفة ابنتها لتنام معها ، ومضت ليلتها فى سبك الحوادث ، لاتهام ابنه ، أما أمينة فقد أيقظت زوجها وأخبرته بكل شىء ، ليقوما بواجبهما فى هذه الكارثة المؤلمة

٣

فى الوقت الذى حدثت فيه الجريمة السالفة الذكر كان خالد عند دعد ، تشرح له آلامها ، وبيثها شكواه ، من مضايقة زوجة أبيه له ، لحملها على قبوله ابنتها زوجة .

وكانا جالسين قرب جدول صغير فى حديقة قصر أبيها تظللهما الأغصان ، وكانا يتحدثان بصوت خافت حذر الرقباء ، وقد أخذ الخوف منهما كل مأخذ ، وكلما أحسا بحفيف الأشجار أو خرير الماء ، تلفتا يمنة ويسرة ، ينتظران قضاء الله فى نفسيهما ، إذا علم القاضى بسلوكهما .

وقالت دعد

— إن الخدم أحسوا بعلاقاتنا ، وأخشى أن يفتضح أمرنا ، فتكون الطامة الكبرى .

— إذا أردت فلن أعود إلى زيارتك . ويخيل إلىّ أنك ترغبين فى إنهاء أمرى حتى لا أكون حجر عثرة فى سبيلك .

— لم يا سيدى تفاجئنى بهذه اللهجة القاسية ، وجلوسى معك على هذا الشكل ، يعرضنى لما أنت عالم به .

— معذرة يا سيدتى فأنى بائس حزين . فقدت حنان الأم وهو لا يعوض ، ورزئت بزوجة أب لا يهدأ لها بال إلا إذا نغصتنى ، وقد عاندنى الزمان بسببك فلا عجب إن صفرت كفى منك .

— دع هــذا اليأس جانبا ، فلن أكون لغيرك ، ولو قطعوا جسمى إربا إربا

— شكرا

— وما بالك توجه إلى التهم بغير حق وأنت أعلم الناس بحبى لك ، وأدراهم بصراحتى . وقد نمت عاطفتى نحوك ، لشرف مقاصدك ، ونبل سماتك ، ولو وجدت فيك اعوجاجا عن الطريق القويم ، لما أسكنتك قلبا لا يقدر إلا الأوفياء ولا يحترم إلا الأتقياء . إعرض على أبيك أن يحادث أبى فى شأننا ، وعلىّ إتمام الباقى .

— أتظنين أن هناك بارقة أمل ؟

— الله يسهل كل أمر عسير

— سأفعل

وهى تحـــادثه إذ فتحت أمها النافذة ، فقالت له اختبىء وراء الشجرة بسرعة ، وإذا بوالدتها تناديها فلبت النداء

فقالت الأم

— ماذا تصنعين عندك ؟ وقد تفقدتك فى غرفتك فلم أجدك .

— حدث لى أرق شديد فنزلت إلى الحديقة

— أتنزلين فى هذه الساعة من الليل ، وسط هذا الظلام الحالك ، وماذا أقول لوالدك إذا عاد وسأل عنك ؟

— إنه ليس هنا الليلة

— وإذا كان متغيبا أنهمل فى واجبنا ؟

لا يا أماه إننى وحدى فلا تخشى بأسا ولا رهقا

إصعدى حالا

— على العين والرأس . ثم أسرت إلى خالد أن ينتظر قليلا ، ثم يخرج من الباب الخلفى ، حتى لا يرتاب فيهما أحد . وصعدت دعد وتركته منفردا لا يعلم ما يخبئه له القدر بين طياته ثم تسلل إلى منزله .

وقبل عودته كان الخادمان مضطربين ، لعجزهما عن الانتقام ولخوفهما من أن توجه التهمة إليهما شخصيا ، وقالت أمينة

— عند ما يعود سيدى خالد . أخبره بحقيقة الحادث

— لو علم بشيء من هذا قبل نومه ، لقتل المرأة وعرض نفسه للعقاب الصارم ، وحياته ثمينة لا ينبغى أن تضيع سدى من أجل هذه الفاجر

— إذن أنترك دم سيدنا يضيع سدى

— هدئى من حدتك ، فالعدل فى بلادنا مكفول ، وقاضينا نزيه والله يرعى الظالمين

— وإذا عاد ألا تخبره بشيء ؟

— لا ينبغى إزعاجه وفى الصباح سيظهر كل شيء

وهما يتحادثان وضياء تنزل بخفة وتضع الخنجر تحت سرير خالد حتى لا يرتاب أحد فى أنه القاتل

وبعد صعودها بقليل طرق الباب خالد فخرج عبد القادر ليفتحه له ولما دخل قال الأول للثانى

— إنى أشعر بانقباض شديد ، وتوعك فى مزاجى ، واضطراب فى أعصابى

— لا بأس عليك يا مولاى .

— متى يعود أبى من سفره

— لا أعلم ، إنما سمعت منه قبل تأهبه للسفر أنه لا يعود إلا بعد عشرة أيام

— عشرة أيام ! إنها مدة طويلة جدا

— لم يا مولاى هل أنت فى حاجة إليه ؟

— نعم

—. ألا يحسن الانتظار حتى يعود ؟

— إن تأخر عن العودة بعد مضى ثلاثة أيام تكون المسألة قد خرجت من يدنا

— وماذا تريد منه ؟

— أريد أن تخبره عن رغبتى فى اختيار ابنة القاضى

— عند العودة أتحدث إليه — إذهب يامولاى إلى غرفتك لتستريح

فذهب خالد وبقى عبد القادر الذى عاد إلى غرفته باكيا فقالت له أمينة

— هل أخبرته بشىء مما جرى ؟

— لا - قلت لك لا ينبغى إزعاجه وفى الصباح يعلم أخبار هذا الحادث

— رباه أتبلغ الخيانة من المرأة حد قتل زوجها

— هى ما قتلته إلا لأخفاء جريمتها ، إذ يظهر أن سيدى رحمه الله قد رآها مع رجل غريب بحالة مريبه ، ولذلك صار من المستحيل الأبقاء عليها ،

— وأى عصر هذا الذى فيه تخون النساء رجالها

— لا تلومي العصر وإنما لومى سوء الاختيار

— وما الذى عولت عليه ؟

— سيحق الله الحق وينال الآثمون جزاءهم

— وهل فى قدرتك تنوير القضاء والقصر فيه سبع خدم أخر يأتمرون بأمرها ويخضعون لسلطانها

— مساكين أولئك الخدم يبيعون ضمائرهم بأبخس ثمن ، مرضاة لسادتهم ، وإبقاء على معيشتهم ، وإذا فسدت نيات السادة فلا تنتظرى من الموالى صلاحا . وإنى أرى أن المهمة شاقة ، وستضيع شهادتنا بين هؤلاء ، وإذا اتهمتنا فيجوز أن نذهب ضحية إفكها وإثمها

— ثم ماذا ؟

— رأيى أن تصادفيها وتتوددى إليها ، وكلما وصلت إلى حجة ضممناها إلى غيرها ، ثم نعرضها جميعها على مولانا القاضى ، وعندئذ يجرى العدل مجراه

إذن استعد للعمل لمهمتنا الشاقة

وفى ناحية أخرى من القصر كانت ضياء توقظ خدامها الأخصاء وتعرض عليهم نقودها لتغريهم بها وتنبه أذهانهم إن ظهرت معالم جريمة فى القصر فلينسبوها إلى خالد ، ورتبت ما يجب أن يقولوه إذا استدعاهم المحقق لسماع أقوالهم فوعدوها خيرا ووطدوا النفس على ذلك

والمال سر من أسرار إفساد النفوس الوضيعة ، وبخاصة لدى أفراد لم ينشأوا نشأة طيبة كهؤلاء الخدم الذين طاوعوها من غير مناقشة واستحبوا العمى عن الهدى ، ولم يكن من بينهم رجل عاقل رشيد .

وتنفس الصبح وأعلن الخبر ، وحدث هرج ومرج ، وولولت ضياء ولطمت شمس على وجهها ، وانتاب خالد إغماء شديد . ووقف عبد القادر بجواره يعنى بأمره ، وطير الخبر إلى دار القضاء وسرعان ما حضر المحقق للبحث فى معرفة الجناة .

وحاول عبد القادر أن يخرج لاستدعاء الطبيب ، ولكن لم يسمح له بالخروج ، إذ صدر أمر المحقق بألا يدع رجال الشرطة المرابطون

على باب القصر أحدا يخرج ، فعاد إلى مولاه ينتظر قضاء الله فيه .
وتظاهرت ضياء بالحزن العميق ، واتهمت ابن القتيل ، بحجة أن سوء تفاهم نشأ بينهما بسبب ميراث أمه ، وقد هدده بالقتل منذ يومين إن لم يسلمه ما يخصه ، وأضافت إلى مفترياتها أنها رأته بعينها يدخل غرفة أبيه ليلا وهو نائم ، ثم يجهز عليه ، ولم تنطق ببنت شفة حرصا على حياتها ، وإلا نالها ما نال زوجها ووافقها على تثبيت ادعاءاتها قرناء السوء ممن أملت عليهم إرادتها .

والتهم تلفق ضد خالد وهو غائب عن الصواب بسبب الأغماء ، وعبد القادر لم يدر ما هنالك لانشغاله بمولاه ، وأمينة ليس لديها من القوة والشجاعة ما يساعدها على كشف الحقيقة واضحة جلية .

ونزل المحقق إلى غرفته ليبحث عن أدلة لأن الشبهات حامت حوله فعثر على الخنجر الملوث بالدماء ، ووجد رسالة من أبيه كان قد أرسلها إليه عند ما كان راغبا فى أن يزوجه من شمس ورد فيها .... (وما كان ظنى أن تخالفنى ، وتسفه رأيى ، وتصر على عنادك وتعتبر نفسك مستقلا عنى ، وترغب فى تصريف أمورك وحدك ، من غير أن أشرف على ما يختص بك) فاعتقد المحقق صحة الاتهام وأمر أن يحمل إلى السجن رهن التحقيق

— ٤ —

دخل السجن وهو فى حالة يرثى لها ولما استفاق من غشيته وجد نفسه على هذه الصورة وإذ علم أنه متهم بقتل أبيه كاد يصعق ، وعملت معه التحقيقات المبدئية ثم حول على القاضى وهو والد دعد ، وعند ما درس القضية لم يبد عليه ارتياح لهذا الاتهام وأملى عليه عقله أن لابد من سر خفى يجب كشفه

— واستدعى خالد أمامه حيث وجه إليه أسئلة كثيرة ثم قال له

— أنت متهم بقتل أبيك

— هذا طبعا غير معقول

— ولكن أمامنا أدلة كثيرة تثبت ذلك

— إذا صح فى نظر مولانا القاضى ذلك فحياتى رخيصة بين يديه وليحكم بما يشاء

— هذا القول لا يعفيك من الجريمة وأريد أن تدافع عن نفسك دفاعا صحيحا يدرأ التهمة عنك

— يعلم الناس جميعا محبة أبى لى وحسن طاعتى له

— وما رأيك فى أن الخنجر وجد فى غرفتك

— ولم يكون ذلك فعل فاعل ومتى كان القاتل يستبقى أداة القتل فى غرفته حتى تثبت إدانته

— وهل لوالدتك أملاك خاصة

— لها شىء ضئيل لا يعادل حبة من قبة إذا قورن بما تركه أبى

— ولماذا إذن اختلفت مع أبيك بسبب ميراثك فيما تركت

— إن شئا من هذا لم يحدث وكيف أغضبه وماله وفير وهو ينفق على عن سعة وتحت تصرفى أنا شخصيا ضياعه ، ويمكنك الاستفهام عن ذلك من الذين يقومون بفلح الأرض وإعدادها

— ومن الذى كتب هذا الخطاب (وقدم إليه الرسالة التى عثر عليها المحقق

— أبى بذاته

— ولماذا كتبها

— ذلك لأنه أراد إرغامي على فتاة وجدت فى قصره

— ومن هى

— هى ابنة زوجته

— ولماذا خاطبك بلهجة تدل على تمردك عليه

— ليس هنالك شىء من التمرد . وإنما السبب راجع إلى رفضى زواجها فى شىء من الأدب ، وإلحاح زوجته عليه جعله يخاطبنى فى هذا الشأن مرة بعد أخرى، وقد قررت فى نفسى ألا أتزوجها أصلا ، وكل شىء يجوز فيه الطاعة إلا معاشرة من لا أود ، ولما وجد منى إصرارا وإباء كتب لى هذه الرسالة

— ومتى قتل أبوك ؟

— لا أدرى سوى أنى سمعت الخبر فى الصباح شائعا بين الخدم ، وحدث لى إغماء عند وقع خبر الكارثة على سمعى ولم أشعر إلا وأنا نزيل السجون

— يقولون إن الجريمة تمت بعد الغروب بثلاث ساعات . فهل كنت فى المنزل فى هذا الوقت

ـ كلا

ـ إذن أين كنت ؟

فارتبك خالد ولم يحر جوابا

فقال القاضى

ـ تكلم لعلك تثبت براءتك

فزاد ارتباكه لأنه كان مع ابنته وهو لا يود أن يفضحها لديه ثم قال

ـ كنت فى مكان لا أستطيع أن أبوح به لأنه سر من أسرارى

ـ القضاء لا يهمه هذا الغموض ، ونريد أن نستنير ، فأما أن تدلى إلينا بما ينفعك ، وإلا فأنت أدرى بالعاقبة

وقال خالد فى نفسه (السجن أحب إلىّ من كشف علاقاتى معها فى مثل هذا الموقف العصيب) ثم التفت إلى القاضى وقال

ـ إنى أصر ياسيدى على عدم ذكر المكان الذى كنت فيه ، فالتفت القاضى إلى الحراس وقال

ـ خذوه إلى السجن حتى نتبين حقيقته . ثم أجل نظر القضية مدة شهرين ليبحث الأمر بنفسه ، لأنه غير مقتنع بصحة اتهامه

وأعادوه إلى السجن ، والقاق يساور عبد القادر الذى اتفق مع زوجته يوم إلقاء القبض على مولاه أن تتباكى أمام سيدتها ، وتدعى لها أنه فارقها لأنها رفضت أن تؤدى الشهادة لمصلحة خالد .

وغادر عبد القادر المنزل بالفعل ليكون حرا فى تعقب من يريد ، ولكى يتصل بدعد لعلها تعاون سيده المظلوم

وفى اليوم التالى للحادثة انفردت ضياء بأمينة ودار بينهما الحديث الآتى

ـ قالت ضياء

ـ أين زوجك يا أمينة فأنى لم أره منذ أمس

ـ إنه خرج يا مولاتى وقرر عدم العودة

ـ وأنت ؟

ـ إنه تركنى نهائيا لأنى رفضت أن أشهد ضدك

ـ ضدى . وهل حدث منى ما يستوجب أن يشهد أحد ضدى

ـ إذا سمحت لى مولاتى فأنى أقول لها رأيت كل شىء ، وأعرف الحقيقة بحذافيرها، وشاهدت مصرع الرجل ، غير أنى مخلصة لك ، ودليلى واضح إذ لو كنت أبغضك أو لا أقدر الولاء لك ، لبلغت المحقق كل شىء ولوصفت شريكك له

فارتبكت ضياء وقالت

ـ إنك واهمة يا أمينة

ـ لا يا مولاتى . وغاية الأمر أن سرك فى قرارة النفس لا أفشيه لأحد ، ولو انتزعوا روحى من جسمى، ويكفيك يا مولاتى ترك زوجى لى من أجلك

ثم تباكت على اعتبار أنها غريبة ليس لها سند فى ذلك البلد ، فطمنت ضياء خاطرها ، وأعطتها عشرين دينارا ، وقربتها منها ، وجعلتها وصيفتها الخاصة إرضاء لها حتى تأمن جانبها .

وما درت ضياء أنها وقعت فى الفخ ، لأن أمينة كلما عثرت على شىء اتصلت بزوجها وسلمته له

وأول فرصة سنحت لها عثورها على أوراق تخص مولاها موضوعة فى صندوق سيدتها ، فنقلتها سرا إلى زوجها ، ليأخذ ما شاء منها إن كان فيها

نفع ويرد لها الباقى لتضعه فى مكانه

وقابلته يوما حسب اتفاقه معها وعرضت عليه الأوراق المذكورة فأخذ عبد القادر فى فرزها و حجز منها ورقتين ثم قال لها

ـ خذى الباقى وضعيه فى موضعه

ـ أوجد شيئا ينفع ؟

ـ بعض النفع

ـ ماذا وجدت ؟

ـ وجدت أن الورقة الأولى مرسلة إلى سيدى من أحد جيرانه ينبئه فيها عن سوء سلوك زوجته التى تتحين فرصة غيابه وتستدعى لبيتها شابا يظل فى المنزل إلى ساعة متأخرة من الليل ، ووصفه فى الرسالة وعين اسمه ولقبه ومقر سكنه

وفى الثانية يقرر مولاك أن كل أملاكه تكون لخالد وحده اللهم إلا قطعة أرض تبعد عن قرطبة بفرسخين منحنا إياها

ـ الله يرحمه لقد كان كريما

ـ اذهبى إلى المنزل وفقك الله

ـ وما هى الفائدة من هاتين الورقتين ؟

ـ تثبت منهما سوء سلوكها وأن خالدا لم يغضب والده بدليل أنه أوصى بما ملك له قبل وفاته بيومين اثنين فقط ويضاف إلى ذلك أن هذه الشريرة لا ينبغى أن ترث شيئا مطلقا

ـ هذا جميل

ثم تركته وذهبت إلى المنزل وأعادت باقى الأوراق كما كانت

وبعد قليل وجدت عبد الله يدخل المنزل وهو شريكها فى الجريمة

فقالت لسيدتها

ـ إن الشاب قد عاد اليوم وأراه فى فناء المنزل

ـ ولم أتى فى مثل هذا الوقت العصيب ؟

ـ لا أدرى

ـ استدعيه إلى هنا

فنزلت أمينة إليه وقالت له

ـ إن مولاتى تنتظرك فى غرفتها الخاصة ، وقد أمرتنى أن أخبرك بذلك

ـ شكرا لك ولها

وهما يصعدان درج المنزل أخذت تتفرس فى وجهه، كأنها تريد أن تحفظ صورته فى ذهنها ، ولما انتهيا إلى الطابق الثانى حياها، وبعد ذلك قالت له ضياء

ـ لم أتيت فى مثل هذا الوقت ؟

ـ أتكرهين زيارتى لك؟

ـ لا أقصد هذا وإنما تحوم حولنا الشبهات، وهنا من يعلم سر المسألة

فابتسمت أمينة وهى مختبئة وراء الباب تسمع حديثهما

فقال لها

ـ لا تحفلى بشىء؟

ـ وكيف لا أحفل والجريمة متعلقة بالقتل

ـ ومن ذا الذى يستطيع أن يثبت ضدك أى شىء

ـ إنى أرتاب فى عبد القادر ، لأنه غادر المنزل عقب الحادثة دون استئذان ، ولعله يسعى لنجاة خالد

ـ ومن قال أن خادما فى قدرته أن يسىء إلى سادته

ـ الخدم أعلم الناس بخفايا القصور ، وإذا نشروا ما يعرفون لهتكوا حرمات المنازل

ـ دعينا من هذا الوهم

ـ وعلى كل حال لا أريد أن أراك الآن حتى يفصل فى القضية نهائيا ، لأننى تمكنت من التغلب على المحقق بالمال الكثير ، ولكن القاضى لا يمكن التغلب عليه ، ومن اسئلته لخالد يتبين أنه يميل إلى تبرئته ، وعندئذ لا يكون لنجاتنا من سبيل

ـ وماذا أعطيت للمحقق

ـ أعطيته ألف دينار وثلاث قطع من الجوهرات الثمينة منقوش عليها اسم زوجى الذى أرديته قتيلا من أجلك . فسرت أمينة من هذا الخبر ، وأسرت فى نفسها أن تبادر إلى إخبار عبد القادر بذلك

فقال لها عبد الله

ـ يمكنك أن تسلكى نفس الطريق مع القاضى

ـ وكيف أصل إليه ؟

ـ إذهبى إلى منزله وتعرفى بعائلته ، وقدمى لزوجته أو ابنته بعض الهدايا

ـ ثم ماذا ؟

ـ لا شىء غير أنك بهذه الطريقة لا تعدمين وسيلة من التقرب إلى القاضى

ـ لا أعتقد فى صحة هذا التدبير

ـ لماذا ؟

ـ لأن القاضى نزيه وله فى ماضيه وسمعته ومحافظته على العدالة ما لا

يمكن أن يجرؤ إنسان على مفاتحته فى مثل هذه الشئون

ـ جربى لعلك تنجحين

ـ سأحاول

ثم هم عبد الله بالخروج فدخلت أمينة وقالت هل من خدمة لسيدتى ؟

ـ إصحبي هذا السيد إلى الباب

ـ أمرك يا مولاتى

وهو نازل وضع يده فى جيبه ليخرج لها دينارا ، وفى أثناء إخراج يده وقعت منه كناشته فتركتها لكيلا تنبهه إليها ، ولما عادت أخفتها ثم صعدت إلى مولاتها وقالت لها

ـ لقد غادر المنزل يا سيدتى

ـ حسنا

ـ أتأمرين بشىء

ـ ما رأيك يا أمينة فانى أريد زيارة منزل القاضى

ـ لماذا ؟

ـ لأمر يخصنى

ـ أتخفين عنى أسرارك يا سيدتى بعد أن ثبت لك ولائى ؟

ـ أريد أن أتودد إلى أسرته وأتعرف بهم

ـ فهمت الآن . وهذه أحسن وسيلة تعينك على مهمتك

ـ أترين ذلك ؟

ـ من غير شك

ـ وماذا أقدم لزوجته كهدية

ـ لا تقدمى لزوجته وإنما لابنته

- وما وجهة نظرك

- إن الرجل يحب ابنته ويقدس مطالبها ولا يخالف لها رأيا ، وإذا توددت إليها سهلت عليك كل أمر

- هذا حسن

- ومن حسن الحظ أنني أعرفها تماما لأن خادمتها كانت تتردد على منزلنا هذا عندما كنت صغيرة فأمريني وأنا أمهد لك الطريق

- ومتى تريدين أن تذهبي إليها ؟

- الآن إذا أمرت

- إذن سيرى على بركة الله

٥

خرجت أمينة بأمر من ضياء ، وقصدت منزل القاضى لمقابلة دعد ، وكلها أمل فى نجاة خالد ، لأنها أتت البيت من بابه ، وإذا علمت ابنة القاضى ما أحاط به من ظروف ، ووصل إلى مسامعها أشياء تتعلق بالتلفيق ضده ، ربمـــا أبلغت أباها كل شىء ، أو سهلت على عبد القادر وزوجته الاتصال به ، وتنوير ذهنه عما غمض من أسرار هذه القضية

وصلت البيت وقابلت خادمة دعد ، وهى كما قدمنا إحدى صديقاتهـا وبمجرد أن جلست معها قالت أمينة

- أتسمحين لى بأن أقابل مولاتك دعد ؟
- أتريدين مقابلتها لمسألة هامة ؟
- لا وإنما سمعت عنها وأميل إلى رؤيتها
- لقد رأيتها من قبل فلماذا هذا اللؤم
- الحقيقة أنى أتيت لمقابلتها لأمر هام
- أتريدين أن تنتقلى إلى منزلنا ؟
- لا يا سيدتى فأن أمرا كهذا لا يحصل
- ولـكن ما رأيك ، فأنى لا أناديها إلا إذا علمت السبب الذى من أجله تلحين فى مقابلتها

وهما تتحاوران دخلت عليهما دعد، وهى فتاة فى مقتبل العمر ، جميلة الشكل واسعة العينين غراء فرعاء ، لا هى بالبدينة ولا بالمهزولة ، وإنمـا بين بين ، ولمـا رأتها أمينة تقدمت نحوها وقالت

لقد أتيت الآن ياسيدتى لأمر عظيم الأهمية يخصك شخصيا

— يخصنى أنا ؟

— نعم

— وماهو هذا الأمر

— لو سمحت أن أكون معك على انفراد أستطيع أن أخبرك بكل شىء

ففتحت دعد بابا يوصل إلى حجرتها ثم قالت

— ماذا لديك من الأخبار ؟

— قبل كل شىء يجب أن تعلمى أننى خادمة خالد

فظهر الامتعاض على وجه دعد وقالت

— وما شأنى بهذا ؟

— لاتتألمى يامولاتى ، فأننى أعلم كل أدوار حياته حتى أسراره الخفية وزوجى خادمه الأمين ، ولا أريد شيئا سوى أنه فى السجن الآن

— فى السجن ؟

— نعم

وكيف ؟

— اتهموه زورا بقتل أبيه

— قتل أبيه ؟ ألم يدافع عن نفسه أمام المحكمة ؟

— لا أدرى

— وهل لديك أنت وزوجك من البينات ماينفعه ؟

— لدينا الشىء الكثير

ـ ولماذا لم تتقدما بها

ـ غدا يتم كل شيء بعد مقابلة زوجي الليلة

ـ وهل هو لا يقيم معك ؟

ـ اقتسمنا العمل واقتضت المصلحة أن ننفصل مؤقتا ، ليستطيع كل منا أن يؤدي واجبه ولكن عند اللزوم يمكن أن نتقابل

ـ إذن تعرفين المكان الذي يقيم فيه

ـ من غير شك

ـ وعلى ذلك يمكنك أن تصحبيني إليه لنتشاور في أمره ونتعاون على حل معضلته .

وخرجتا معا وأخذت أمينة تقص عليها ما القارىء عالم به ، وأفهمتها أيضا أنها موفدة من لدن مولاتها لتتوسط في الأمر بينها وبين أبيها ، وقصت عليها فكرة الهدايا ، فسرت دعد لا لأنها ستملك بعض جواهر ، وإنما لأن المرأة بهذا ستقع في شر أعمالها . وشجعت أمينة على ذلك ، وضربت لها موعدا لاستقبال ضياء في بيتها عند غروب اليوم التالي

ولما وصلتا إلى المنزل الذي اتخذه عبد القادر سكنا له ، وجداه فيه ، ولشد ما دهش عند ما رأى مع أمينة فتاة يدل مظهرها على أنها من بنات العظماء

وأعلمته زوجته كل شيء وقدمت له كناشة عبد الله فتصفحها جيدا واستنبط من خلال سطورها أشياء كثيرة ثم التفت إلى دعد وقال لها

ـ أنا سعيد جدا بهذه الزيارة ـ فهل من خدمة أقوم بها ؟

فقالت أمينة

ـ هي سيدتي دعد

فانتفض واقفا وقال

ـ إنهم سجنوه وهو يعانى ألم فراق أبيه وفراق من يحب وألم الاتهام الباطل

فطأطأت دعد رأسها قليلا ثم قالت

ـ وماذا صنعت لنجاته

ـ كل شيء والترتيب ناجح بأدق معانى الكلمة

ـ مسكين ياخالد لقد أبعدوك وعذبوك ، وما أنت من المجرمين حتى تغيب فى غياهب السجون .

ـ أتسمح لى سيدتى بأن أوجه إليها سؤالا أرانى متطفلا فى توجيهه ؟

ـ تفضل

ـ هل تم زواج مولاتى ؟

ـ كلا .

ـ لقد علمت أن كل شيء كان فى حيز التنفيذ

ـ هذا صحيح ، ولكن عند ما كان إتمام الأمر قاب قوسين أو أدنى ، بلغ الخليفة أشياء نسبت إلى ذلك الشاب السمج ، وهى تدل على الأخلال بالشرف وانحطاط الخلق ، فطرده من خدمته ، ولذلك لم يعد يصلح صهرا ، فانقطع من تلقاء نفسه .

ـ الحمد لله

ـ إنك لم تشرح لى شيئا من مجهوداتك التى بذلتها لمصلحة خالد .

ـ قصرت عملى على تعقب عبد الله حتى علمت أنه شخص فاسد القلب لايتورع عن الأعمال الأجرامية وعرفت أنه كان يستعد لقتل مولاى رحمه الله منذ أن تزوج بضياء

وقد أسر بهذا إلى خادم طرده من خدمتـه حديثا ، وفى كناشته التى قدمتها الى أمينة الآن كشف ضمنه ما أنفقه فى يوم ٧ رجب ، وهـــو تاريخ سابق للحادثة بأحد عشر يوما ، وقد جعل للخادم أجرا قدره مائتى دينار ، كما هو مدون فيها ، ثم قص عليها ما وصلت إليه أمينة ، التى أعلمته أيضا بالمسألة الجديدة المتعلقة بزيارة ضياء لبيت القاضى .

فقال عبد القادر

هذا جميل ، ولو أحسنت مولاتى دعد صنعا ، لأطلعت أباها على موعد الزيارة ، وجعلته يختبىء فى مكان قريب بحيث يستطيع أن يسمع الحديث بنفسه ، ليتأكد خطأ الاتهام .

فوعدته دعد بتنفيذ ذلك ثم قالت له

- إنى سأذهب إلى بيتى الآن ، وبعد مضى أربع ساعات من الليل أرجوك أن تكون على مقربة من بيتى لأنى أريد اصطحابك إلى السجن لزيارة خالد .

ـ هذا مستحيل يامولاتى إذ على باب السجن حراس ، وبداخله حراس ولا يمكن الوصول إليه

- لاتخف فأنى لا أعدم وسيلة تمكننى من مقابلته الليلة

ولماذا اخترت هذا الموعد ؟

ـ ذلك لأن جميع من فى البيت يكونون قد ناموا ووالدى لايبيت فيه الليلة

ـ أمرك ياسيدتى

ثم التفت إلى أمينة وقال لها اذهبي أنت الآن واذا أمكنك الحصول على شىء لاتبخلى بزيارتى

فذهبتا معا وافترقتا بعد ذلك ، دعد إلى منزلها وأمينة إلى مولاتها
ولما وصات الخادمة إلى دارها قالت لضياء

- قرى عينا يامولاتى فقد هيأت لك كل شيء

- ماذا فعلت ؟

ـ قابلت ابنة القاضى واتفقت معها على ثلاثمائة دينار وثلاث قطع من الجواهر فى نظير إغراء أبيها على الحكم ضد خالد

ـ أأشرت عليها بهذا دفعة واحدة

- لا . أخذتها بالتدريج ، ولما رأيت لديها استعدادا لقبول الرشوة فاتحتها فى الأمر صراحة فقبلت

- فابتهجت ضياء وأخذت فى الاستعداد لمقابلة دعد فى الموعد الذى قررته بعد ان أخبرتها أمينة عنه وجهزت المبلغ والجواهر

ـ وبينما كانت ضياء نائمة ، أخذت أمينة فى البحث والتنقيب ، حيث عثرت على قميص لمولاتها ملوث بالدماء ، وقطعة من رداء عبد الله ، يظهر أنها قطعت أثناء تدافعه مع مولاها ، فوضعتها فى مكان بعيد عن الأنظار ريثما تنقلهما إلى زوجها .

هذا من جهة أمينة ، وأما من جهة دعد فانها انتظرت حتى نام جميع ذويها ، ثم خرجت دون أن يشعر بها أحد ، فوجدت عبد القادر فى انتظارها .

وسارا متقاربين أحيانا ، ومتباعدين أحيانا ، وقد تحادثا كما يلى
قال عبد القادر

- إلى أى جهة تريدين الذهاب ؟

ـ إلى السجن

ـ ولماذا ؟

ـ لمقابلة خالد

ـ وما الفائدة من هذه المقابلة ؟

ـ أود أن أطمئن على صحته

ـ إن هذه مخاطرة غير مجدية ياسيدتى ، وبعد قريب سيكون موعد الجلسة ، وقد وصلنا إلى أدلة قوية ، وبراهين متينة ، وإذا كشفت هذه المحاولة اقتادونا إلى السجن ، وساء التدبير

ـ إن كنت خائفا فابق أنت

ـ ليس من الشهامة ياسيدتى أن أتركك منفردة غير أنى لا أرى أن هذه الزيارة نافعة له والذكرى تزيده ألما على ألم ، والشىء الذى لايتمشى مع القانون ، لاينبغى أن يكون لنا واسطة أو غاية واعتقدى اعتقادا لايخامره شك أن الحراس لو ارتابوا فى أمرنا وساقونا الى دار القضاء تكون العاقبة وخيمة ووبالا علينا جميعا

ـ إذن لماذا وافقتنى فى بادىء الأمر وجعلتنى أخرج من المنزل فى هذه الساعة من الليل

ـ خشيت إغضابك وأنا وسيدى فى حاجة إلى معونتك

ـ وعلام عولت إذن ؟

ـ الطريقة السليمة هى أن تجعلى أباك يسمع أقوال ضياء وسأذهب إليه بنفسى بعد غد لأطلعه على كل شىء

ـ أهذا كل ماتراه ؟

ـ هذا رأيى والأمر منك وإليك

لابأس وهيا نعود والله يتولاه برحمته الواسعة

وهما عائدان قال لها

ـ أعلمت ياسيدتى أنه خاطر بحياته من أجلك ؟

ـ وكيف ؟

ـ عفوا اذا قلت أنه كان معك وقت أن قتل أبوه ، ولما سأله مولانا القاضى أين كان وقت الحادثة ، أصر ألا يبوح بسرك ، وعرض نفسه للموت .

ـ رباه إنه لكريم ، ولكن كان أهون على أن يعترف بكل شيء من أن يعذب هذا العذاب الأليم

ـ اطمئنى فالله يرعى الابرياء

ـ بهمتك يحيق المكر السيء بأهله

ـ بهمتك أنت فالقاضى أبوك

ـ ولكنه لا يستمع لأهله قولا فى شئون العدل ولا يحكم إلا بما يمليه عليه الضمير بعد دراسة مستوفاة لما يعرض عليه

ـ هذا هو الذى نتمناه ، وما دامت الأمور تجرى فى مجراها الطبعى ، فسيعلم الذين ظلموا أى عقاب ينالون

ولما وصلا بيتها ودعته شاكرة ويمم صوب داره وهو يحمد الله إذ أعد عمله إعدادا طيبا لأنقاذ خالد

٦

مضى خالد فى سجنه أياما رأى فى غضونها الأمرين ، ولازمه مرض شديد ، كاد يودى بحياته ، أو رأى نفسه بغير أنيس .

وقطع الرجاء من تحقيق أى أمل ، ومر بخاطره يوما قتل أبيه ، وعدم قدرته على الأخذ بثأره ، فأذرفت عيناه الدمع مدراراً ، واستوقفت حالته أحد الحراس ، إذ أشفق عليه وقال له

ـ هون عليك يابنى ، وما دمت رهن التحقيق فالأمل عظيم فى خروجك موفور الكرامة .

ـ وما هى قيمة الحياة بعد فقد أبى .

ـ ليس أحد فى هذه الدنيا بمخلد

ـ ألا تدرى متى أطلب لدار القضاء ؟

ـ لا أعلم ياسيدى ، وليس هذا من شأننا ، ووظيفتنا مراقبة المساجين ، ومنعهم من الهرب ، وتقديم الطعام لهم فى المواعيد المقررة .

ـ اللهم رحمتك الواسعة

ـ لا تكن شديد الحزن فأن قلبى يحدثنى أن ستعلن براءتك فى القريب العاجل .

ـ ومن يدرى ؟

ـ كنت مارا فى الطريق ليلة أمس بعد الانتهاء من حراستى ، إذ رأيت رجلا وامرأة يتحدثان فى أمر سجين

واستنبطت من مجرى الحديث أنهما يقصدانك شخصيا

ـ وماذا سمعت منهما ؟

ـ علمت أن الرجل جمع أدلة كافية لتبرئتك ، وذهب الى مولانا القاضي ، وعرض عليه كل شيء ، وكان يشرح للمرأة ان القاضي سيطلبها ليسمع أقوالها زيادة في التثبت ، وأكد لها أن الأمر سيصدر بألقاء القبض على ضياء وشريكها

ـ رباه إن صاحبة هذا الاسم هي التي نكبتني

ـ أثبت لك أنني لا أكذب عليك ؟

ـ كبير ظني أن الرجل هو عبد القادر والمرأة هي زوجته

ـ هذا صحيح فقد سمعتها تناديه بهذا الاسم

ـ لعل الله يبدل بعد عسر يسرا

ـ علم الله يابني أنني لم أتألم لسجين بمقدار تألمي من أجلك ، فلقد مضيت في مهنتي هذه أكثر من عشرين سنة ، وقد وفد علينا فيها كثير من المجرمين على اختلاف طبقاتهم فلم أتأثر لأي فرد منهم لأن الشر كان يبدو عليهم ، والأجرام كان يظهر من خلال حركاتهم وسكناتهم . أما أنت فغير هؤلاء جميعا ولا يظلم ربك أحدا

ـ شكرا لك ياسيدي على هذه العاطفة السامية ، وعلى هـــذا النحو صار الحارس يتردد عليه ويواسيه ، ويقص عليه أخبار من دخلوا السجن في عهده .

أما أمينة وضياء فقد ذهبتا إلى بيت القاضي حسب الموعد الذي قررته دعد ، ولما دخلتا الحجرة المعدة لاستقبال الزائرين أو الزائرات كان القاضي في مكان يرى الجميع منه ولا يراه أحد . ذلك لأن ابنته أطلعته على كل شيء خاص بهذه الزيارة ، فاستحسن أن يسمع أقوال ضياء بنفسه ، لعله يستفيد شيئا ، ولقن ابنته بعض كلمات وأسئلة توجهها اليها ، وبعد أن استقر بهن الجلوس قالت دعد

ـ خيرا هل من خدمة تأمرين بها ؟

ـ كلا . وإنما رغبت فى زيارتك للتشرف بمعرفتك

ـ لماذا تخفين عنى وقد أفهمتنى أمينة كل شىء ، وقد وعدتها بتنفيذ رغباتك ، وعرضت الأمر بالفعل على أبى فوافق بعد جهد جهيد ، غير أنى لاحظت التألم باديا عليه ، لأنك أعطيت المحقق الشىء الكثير ولم تعطيه هو شيئا .

ـ أقال لك والدك ذلك

ـ طبعا وإلا من الذى أبلغنى هذا ؟

ـ إذا كان الأمر كذلك فأنا على استعداد لتقديم ما تأمرين به على شرط أن يلصق التهمة بخالد

ـ أطلب شيئا زهيدا

ـ كم تطلبين .

ـ ألف دينار وست قطع من الجواهر من النوع الذى أخذه المحقق

ـ خذى هذا القدر الآن ، وبعد برهة أقدم الباقى ثم التفتت إلى أمينة وقالت لها ، خذى هــــذا المفتاح واذهبى إلى المنزل حالا ، وفى غرفتى الخاصة تجدين صندوقا صغيرا خلف سريرى فافتحيه وأحضرى الصرة التى فيه . فخرجت أمينة توا إلى المنزل وجاءت بالصرة ، وأخذت أيضا قميص مولاتها والقطعة المقطوعة من ثوب شريكها ، وذهبت أولا إلى عبد القادر وسلمتهما له ، وأفهمته ما وصلت إليه من المعلومات ، ثم قفلت راجعة بسرعة إلى منزل القاضى ، حيث سلمت ما أمرت به لسيدتها ، وهى بدورها أعطت دعد ما طلبت ، ثم استأذنت وانصرفت ، وبمجرد خروجها قال القاضى لابنته

- ما شككت فى خطأ اتهام هذا الشاب المسكين الذى أمرنا بزجه فى السجن زورا وظلما

- ولماذا أمرت بهذا ؟

- لأنه رفض أن يقول لى عن المكان الذى كان فيه وقت ارتكاب الجريمة

- إنه كان عندى

- ماذا تقولين ؟

- عفوا يا أبى إنه شريف ، وسبق لسانى جنانى وهو يحبنى حباً جماً، وأنا أقاسمه هوى شريفا، ثم بكت بكاء مراً ، فاختبل القاضى أولا ثم عاد إلى روعه وقال لها

- علمت كل شىء وقد قص على خادمه عبد القادر كل صغيرة وكبيرة ؛ وسيصدر أمرى بالافراج عن خالد وبالقاء القبض على الجناة الحقيقيين فى صباح الغد

- والمحقق ؟

- سينال جزاءه لأنه مجرم . غير أنه يؤلمنى جداً أن أسمع عنك هذا التصرف المعيب

فطأطأت رأسها خجلا ثم قالت

- لا ترتب فى شرفى فانى محافظة عليه تماما

فانصرف من عندها بعد أن أخذ منها الأموال والجواهر ، وفى صباح اليوم التالى جاء عبد الله إلى منزل ضياء لزيارتها والتحدث إليها فى بعض الشئون

فقالت له ضياء

- ألم أقل لك لا يحسن أن تظهر فى قصرى فى هذه الأيام ؟

ـ ولماذا ؟

ـ حذر الرقباء

ـ دعينا من هذا الآن . وأريد أن أعلم متى سيتم زواجي بك

ـ لا تفكر في شيء من هذا حتى تزول الشبهات عنا

ـ إنك لا ترغبين فيّ لأني لا أكافئك في ثروتك ولا أعادلك في مقامك

ـ قلت لك مراراً لا تفكر في هذا أصلا ، وإنما هو كسب الوقت فقط

ـ وماذا صنعت مع أسرة القاضي ؟

ـ انتهى كل أمر على ما يرام

وهما يتحادثان على هذا النحو وإذا بالجنود تقتحم المنزل وتفتشه تفتيشاً دقيقا ثم ألقى القبض على ضياء وعبد الله وبعض الخدم الذين شهدوا زورا فلما حدث هذا قالت امينة

ـ مع السلامة يامولاتي فان الله يرد كيد الخائنين في نحورهم ، وقد انتهينا من دورنا أنا وعبد القادر وقمنا بما يجب نحو سيدنا من الولاء والوفاء . فلم تنبس ضياء ببنت شفة ، وفي ذات الوقت أفرج عن خالد ، ولكنك لو كنت رأيته لوجدته مهزولا ضعيف الجسم شاحب اللون .

وأمر أن يتوجه في الحال إلى ساحة القضاء لتسمع أقواله لأنه تلقى أمرا بالذهاب . وعند ماوصل فناء المحكمة وجد عبد القادر وزوجته هنالك لسماع اقوالها فحياهما وقبلا يده

وقال خالد

ـ لا أدري لماذا أفرج عني

ـ ذلك لأن وراءك من يسهر على مصلحتك ويسعى لرفع الغبن عنك . فقد أتينا بالمستحيل حتى جعلنا العدل يجري مجراه

ـ إذن نجاتى جاءت على يديك ويديها

- الفضل لله ياسيدى أولا . وثق أن الاخلاص الذى سرنا على حسبه مصدره حنان أبيك وشفقته علينا ، وحسن معاملتك ورعايتك لنا

وفى أثناء الحديث نودى على الأفراد الذين ستسمع أقوالهم فى القضية ، وأخذ القاضى فى استجوابهم جميعا ولما انتهى من دراسة الموضوع أصدر أحكامه على الجناة الحقيقيين على حسب جرائمهم وأصدر أمره أيضا ببراءة خالد ، وقصر جميع ماتركه ابوه له وحده إلا الجزء الذى قرر منحه لخادميه

وخرجت شمس من القصر كاسفة البال ، لتعيش لدى أحد أقاربها ، ومنح خالد عبد القادر وزوجته ضيعة كبيرة مكافأة لهما على إخلاصهما ومساعدتهما له .

ولما حسنت صحته واستقامت حالته المعيشية ، تقدم الى القاضى يطلب يد ابنته فلم يرفض طلبه وبعد أن تزوجها عاش معها فى اطمئنان ورفاهية وسعادة

تصحيح الاخطاء المطبعية

سطر	صفحة	خطأ	صواب	سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢	١٦	العصبية	العصيبة	٢	٢٢٢	ويهلب	ويجلب
٦	٣٥	فريق	فريقا	٤	١١٨	عيار	عياراً
١٣	٣٥	لو أن	من	٣	١٢٧	فريق	فريقاً
٢١	٥٣	هحره	هجره	١٧	١٣١	الرأى	الرأس
٧	٧٤	يتأر	يثأر	٥	١٣٣	الاعتذر	الاعتذار
١٨	٨٢	لا	إلا	٦	١٤٧	الأُخطار	الأُخطاء
١٩	٨٣	ويحت	ويحث	٥	١٤٩	على	على كل
١٦	٨٧	يكترسون	يكترثون	٢٠	١٥٧	الصقبلى	الصقلبى
١٧	٩٢	الخفاه	الخفاء	١٧	١٦٧	ولم يكون	ولم لا يكون
٢	١٠٧	الدام	الدوام				

مواضيع الكتاب